القانون

20

لا تلتزم بأحد

الحكم

إن الأحمق هو الذي يتسرَّع بالانحياز إلى طرف من الأطراف. لا تلتزم بأي طرف أو قضية سوى نفسك. فبالحفاظ على استقلالك تصبح سيد الآخرين - اجعل الناس يقف بعضهم ضد بعض، فبذلك يتبعونك وَيَلْحَقون بِك.

القسم الأول: لا تلتزم بأحد
بل دع الجميع يتوددون إليك

إذا سمحت للناس أن يشعروا بأنهم يملكونك إلى أي درجة، فإنك ستفقد كل سلطة عليهم. فبعدم إلزام عواطفك بشيء ستجعل الناس يحاولون كسبك بجدية أكثر. إبق مترفعاً وسوف تكسب السلطة التي تأتي من اهتمامهم ورغبتهم المحبَطة. العب دور الملكة العذراء (إشارة إلى الملكة آليزابيث الأولى التي جمعت حولها رغبات علية القوم في بلاطها دون الالتزام بأي منهم: المترجم). أعطهم الأمل، ولكن لا تشبع رغبة أحد منهم أبداً.

مراعاة القانون

عندما تسنَّمت الملكة آليزابيث الأولى عرش إنكلترا سنة 1558، كانت هناك جهود كبيرة للعثور على زوج لها. فنوقش الموضوع في البرلمان، وكان هو الموضوع الأساسي في الحديث بين الإنكليز من كل الطبقات؛ وكثيراً ما اختلفوا حول مَنْ ينبغي لها أن تتزوَّج، ولكن الجميع كانوا يعتقدون أنها ينبغي أن تتزوَّج في أقرب وقت ممكن، لأن الملكة يجب أن يكون لها ملك، وأن تحمل وتنجب ورثة للمملكة. وظلَّت المناقشات محتدمة سنوات طويلة. وفي هذه الأثناء، راح يتنافس على يد آليزابيث أكثر عزَّاب المملكة وسامة وجدارة، وهم السير روبرت ددلي، والإيرل أوف إسكس، والسير والتر رالي. فلم تثبطهم، غير أنها لم تَبْدُ

في عجلة من أمرها؛ وكثيراً ما تناقضت تلميحاتها حول الذي سيكون رجلها المفضَّل منهم. وفي سنة 1566، أرسل البرلمان وفداً إلى آليزابيث يحثها على الزواج قبل أن تصل إلى سن اليأس فتعجز عن الحمل وإنجاب الأطفال. فلم تجادل، ولم تحبط الوفد، ولكنها مع ذلك ظلَّت عذراء.

وبالتدريج، جعلتها اللعبة الدقيقة التي مارستها مع خُطَّابها موضوعاً لخيالات جنسية لا حصر لها، وهدفاً لعبادة طقوسية. واستخدم طبيب البلاط، سيمون فورمان، مذكرته اليومية لوصف أحلامه في فضّ بكارتها. ومثلها الرسامون على شكل ديانا وغيرها من الآلهة. وكتب الشاعر إدموند سبنسر وغيره قصائد مديح للملكة العذراء. وأُشير إليها على أنها «إمبراطورة العالم»، «تلك العذراء الفاضلة» التي تحكم العالم وتحرِّك الكواكب في أفلاكها. وكان خطابها الكثيرون عندما يتحدثون معها يستخدمون تلميحات جنسية جريئة، وهي جرأة لم تثبطها آليزابيث. بل فعلت كل ما في وسعها لإثارة اهتمامهم، ولإبقائهم على مبعدة منها في الوقت نفسه.

وفي طول أوروبا وعرضها، كان الملوك والأمراء يعرفون أن الزواج من آليزابيث سيقيم حلفاً بين إنكلترا وأية أمة. فتودَّد إليها ملك إسبانيا، وكذلك فعل أمير السويد، وآرشيدوق النمسا، فرفضتهم جميعاً بطريقة مهذبة.

وكانت القضية الدبلوماسية الكبرى في أيام آليزابيث، هي ثورة الأراضي المنخفضة الفلمنكية والهولندية، التي كانت آنذاك ممتلكات إسبانية. فهل تفكّ إنكلترا تحالفها مع إسبانيا وتختار فرنسا كحليف رئيسي لها على القارة، وبذلك تشجِّع الفلمنكيين الجرمان والهولنديين على الاستقلال؟ كان التحالف مع فرنسا يبدو بحلول سنة 1572، أحكم طريق تسلكه إنكلترا. فقد كان لدى فرنسا رجلان من ذوي الدم النبيل جديران بآليزابيث، هما: دوق آنجو، ودوق آلينصون، شقيقا الملك

الفرنسي. وكان لدى كل منهما ميزات، وقد أبقت آليزابيث آمال الاثنين حية. وظل الموضوع يجيش أعواماً. وقام دوق آنجو بعدة زيارات لإنكلترا. وقبَّل آليزابيث علناً أمام الناس، بل وناداها بأسماء التدليل؛ وبدت مستجيبة لعواطفه. وفي هذه الأثناء، بينما هي تغازل الأخوين، تم توقيع معاهدة أقامت سلاماً بين فرنسا وإنكلترا. وبحلول سنة 1582، شعرت آليزابيث أنه بات بوسعها أن تقطع حبل هذا الغزل. وبالنسبة لدوق آنجو، على وجه الخصوص، فعلت ذلك براحة كبيرة. فمن أجل الدبلوماسية كانت قد سمحت لنفسها بتلقي مغازلات رجل لم تكن تطيق حضوره، بل كانت تجده من ناحية جسدية مثيراً للاشمئزاز. وعندما صار السلام بين فرنسا وإنكلترا آمناً، تخلَّت عن الدوق الأملس المداهن بأقصى ما استطاعت من تهذيب.

وفي ذلك الحين كانت آليزابيث قد تجاوزت عمر الإنجاب، وبناء على ذلك فقد تمكَّنت من أن تعيش بقية عمرها كما ترغب، وماتت وهي الملكة العذراء. فلم تترك وريثاً مباشراً، ولكنها حكمت فترة من السلام الخصب الثقافي لا تُضاهَى.

التفسير

كان لآليزابيث سبب وجيه للزواج: فقد شهدت أخطاء ماري ملكة الاسكتلنديين، ابنة عمومتها. كان الاسكتلنديون يقاومون فكرة أن تحكمهم امرأة، ولذا توقعوا أن تتزوَّج ماري، وأن تتزوَّج بطريقة حكيمة. وكان الزواج من أجنبي فكرة مكروهة شعبياً. كما أن تفضيل أي بيت نبيل من شأنه فتح الباب لمنافسات رهيبة. وفي آخر الأمر اختارت ماري اللورد دارنلي، وهو كاثوليكي. وبذلك استثارت غضب بروتستانت اسكتلندا، وتبعت ذلك اضطرابات لا نهاية لها.

وكانت آليزابيث تعرف أن الزواج قد يؤدي على الأغلب إلى دمار الحاكمة الأنثى. فبالزواج والالتزام بالتحالف مع فريق أو أمة تتورَّط

الملكة في صراعات ليست من اختيارها. . وهي صراعات قد تغرقها في آخر الأمر أو تقودها إلى حرب لا طائل من ورائها. ثم إن الزوج يصبح الحاكم الفعلي، وكثيراً ما يحاول أن يستغني عن زوجته الملكة، كما حاول دارنلي أن يتخلَّص من ماري. لقد تعلَّمت آليزابيث الدرس جيداً. فكان لها هدفان كحاكمة: أن تتجنَّب الزواج وأن تتجنَّب الحرب. فاستطاعت أن تقرن بينهما بِتَدْلِيَةِ احتمال الزواج لتشكيل أحلاف. إذ أن لحظة التزامها بأي خطيب بمفرده ستكون هي لحظة فقدانها لسلطتها. فكان عليها أن ينبعث منها الغموض وإثارة الرغبة، فلا تحبط آمال أي شخص ولكنها لا تستسلم.

وفي غمرة لعبة الغزل والانسحاب التي امتدَّت على طول حياة آليزابيث، سيطرت على البلد، وعلى كل رجل سعى للتغلُّب عليها. وطالما كانت في مركز الانتباه فقد ظل زمام السيطرة في يدها. فحافظت على استقلالها فوق الجميع، وحَمَتْ سلطتها وجعلت نفسها موضع عبادة.

أفضِّل أن أكون شحَّاذة وعازبة على أن أكون ملكة ومتزوجة.

(الملكة آليزابيث الأولى، 1533–1603)

مفاتيح السلطة

بما أن السلطة تعتمد كثيراً على المظاهر، فإن عليك أن تتعلَّم الأحابيل التي تعزِّز صورتك، ومنها رفض الالتزام بأي شخص أو مجموعة. فعندما تتمنَّع وتنأى بنفسك فإنك لن تستثير الغضب، بل تكسب نوعاً من الاحترام، إذ أنك ستبدو قوياً على الفور لأنك تضع نفسك بعيداً عن متناول أية قبضة، بدلاً من الخضوع للمجموعة، أو للعلاقة، كما يفعل معظم الناس. وهذه الهالة من القوة أو السلطة لا تزداد مع الزمن إلاَّ تنامياً. ومع تعاظم سمعة استقلالك، سيرغب فيك عدد من الناس أكثر فأكثر، وكلٌّ منهم يريد أن يكون هو الذي يجعلك

تلتزم. والرغبة مثل الفيروس: فإذا رأينا شخصاً يرغب فيه الآخرون، فإننا نميل إلى أن نجد هذا الشخص مرغوباً فيه أيضاً.

وفي لحظة التزامك، يختفي السحر. فتصبح كأي شخص آخر. ذلك أن الناس سيجربون كل الطرق الخفية والماكرة لجعلك تلتزم. فيعطونك الهدايا، ويمطرونك بخدماتهم ومِنَنهم، كل ذلك لإرغامك على الشعور بالعرفان. فشجِّع رعايتهم وحرِّك اهتمامهم، ولكن لا تلتزم بأي ثمن. اقبل الهدايا والمجاملات والألطاف إن كنت ترغب في ذلك. ولكن اعتنِ بالمحافظة على ترفعك الداخلي. إذْ أنك لا تستطيع أن تشعر نفسك بالعرفان لأحد، حتى ولو عن غير قصد.

ولكن تذكَّر: إن الهدف ليس تنفير الناس، ولا أن تبدو غير قادر على الالتزام. فمثل الملكة العذراء، أنت بحاجة إلى تحريك القِدْر، وإثارة الاهتمام، واجتذاب الناس بإمكانية كسبهم لك، فعليك أن تنحني لاهتمامهم بين حين وآخر إذنْ ـ ولكن ليس أكثر من اللازم.

كان الجندي والسياسي الإغريقي ألْسِيبْيادِس يلعب دوره على النحو الأكمل. فقد كان هو الذي أوحى بالأسطول الأثينيّ الكثيف الهائل الذي هاجم صقلية، وقاد ذلك الأسطول في سنة 414 ق.م. وعندما حاول حساده الأثينيون أن يسقطوه في وطنه بتهم ملفقة، هرب إلى أعداء أثينا الاسبارطيين، بدلاً من مواجهة المحاكمة لو عاد. ثم بعد هزيمة الأثينيين في سيراكيوز، غادر اسبارطة إلى فارس، رغم أن قوة اسبارطة كانت آخذة في التعاظم. غير أن الأثينيين والاسبارطيين جميعاً راحوا يتودَّدون إليه بسبب نفوذه لدى الفرس. وأمطره الفرس بأنواع من التكريم بسبب سلطته على الأثينيين والاسبارطيين. فقدَّم وعوداً لكل طرف، ولكنه لم يلتزم بأي طرف. وفي آخر الأمر كان يمسك بكل الأوراق.

فإن كنت تتطلَّع إلى السلطة والنفوذ فجرِّب خطط ألسيبيادس الانتهازية. ضع نفسك بين قوىً متنافسة، فاجتذب طرفاً بوعودك له

بالمساعدة، وعندئذ يلاحقك الجانب الآخر الراغب دائماً في التفوق على عدوّه. فبينما يتبارى كل طرف مع الآخر لكسب اهتمامك فستبدو على الفور شخصاً ذا نفوذ عظيم ومرغوب فيه. وستكتسب سلطة أكثر مما لو تسرَّعت بالتزام طرف واحد. ولإتقان هذه الخطة التكتيكية إلى حد الكمال، فإنك تحتاج إلى إبقاء نفسك من الداخل متحرِّراً من التشابكات العاطفية، وأن تنظر إلى مَنْ حولك باعتبارهم بيادق في طريق صعودك إلى القمة. إنك لا تستطيع أن تجعل نفسك رهينة بخدمة أي قضية.

في غمرة انتخابات الرئاسة الأميركية سنة 1968، اتصل هنري كيسنجر هاتفيّاً بفريق ريتشارد نيكسون. وكان كيسنجر متحالفاً مع نيلسون روكفلر، الذي سعى للحصول على ترشيح الجمهوريين له لمنصب الرئاسة فلم ينجح. فعرض كيسنجر أن يساعد معسكر نيكسون بمعلومات داخلية قيِّمة عن مفاوضات السلام الڤيتنامية التي كانت جارية في باريس. إذْ كان لديه رجل في فريق التفاوض يبقيه على اطلاع على آخر التطورات. فقبل فريق نيكسون ذلك العرض بسرور.

غير أن كيسنجر كان في الوقت نفسه قد فاتح المرشح الديمقراطي هيوبرت هـ. همفري، وعرض عليه مساعدته كذلك. فطلب منه رجال همفري معلومات داخلية عن نيكسون فزوَّدهم بها، وقال لهم: «انظروا. لقد كرهت نيكسون طيلة سنوات». والواقع أنه لم يكن مهتماً بأي جانب. وكان ما أراده في الحقيقة هو ما حصل عليه: وعداً بمنصب وزاري رفيع المستوى من نيكسون ومن همفري على حدٍّ سواء. فصارت حياة كيسنجر العملية مؤمَّنة مضمونة أياً كان الفائز في الانتخابات.

وكان الفائز بالطبع هو نيكسون، وهكذا ذهب كيسنجر حسب الأصول إلى منصبه الوزاري. ومع ذلك فقد كان حريصاً على أن لا يظهر وكأنه صنيعة نيكسون. وعندما أُعيد انتخاب نيكسون سنة 1972، طُرِد من المناصب رجالٌ كانوا أكثر وفاءً له من كيسنجر. وكان كيسنجر أيضاً

المسؤول الكبير الوحيد من إدارة نيكسون الذي نجا من فضيحة ووترغيت وبقي ليخدم تحت حكم الرئيس التالي، جيرالد فورد. ذلك أنه حافظ على مسافة قليلة فاصلة، فازدهر وانتعش في أوقات كانت مضطربة.

إن الذين يستخدمون هذه الاستراتيجية كثيراً ما يلاحظون ظاهرةً غريبة: إن الناس الذين يسارعون إلى دعم الآخرين يميلون إلى أن لا يكسبوا احتراماً يذكر في هذه العملية، لأن الحصول على مساعدتهم يتم بسهولة شديدة. أما أولئك الذين ينتظرون على مبعدة فيجدون أنفسهم محاصرين بالمتضرعين إليهم. ذلك لأن ترفّعهم مصدر قوة لهم، فكل طرف يريدهم إلى جانبه.

عندما صار بيكاسو أنجح فنان في العالم، بعد سنوات الفقر في بواكير حياته، لم يلزم نفسه بالعمل مع هذا البائع أو ذاك، رغم أن البائعين راحوا يطوقونه من كل جانب بعروض مغرية ووعود كبرى. وبدلاً من ذلك ظهر وكأنه غير مهتم بخدماتهم؛ فجعلهم هذا الأسلوب يتحمسون بوحشية، وبينما راحوا يقتتلون عليه فإن ذلك لم يزد أسعار لوحاته إلاَّ ارتفاعاً. وعندما أراد هنري كيسنجر، وزير خارجية الولايات المتحدة، أن يتوصل إلى انفراج مع الاتحاد السوفييتي، لم يقدم تنازلات أو إشارات تصالحية، بل راح يتودَّد إلى الصين بدلاً من ذلك. فأثار هذا ثائرة السوفييت، ولكنه أفزعهم كذلك. إذ أنهم كانوا معزولين، فخافوا من ازدياد عزلتهم إذا اجتمعت الولايات المتحدة مع الصين. وهكذا أدَّت حركة كيسنجر إلى دفعهم إلى مائدة المفاوضات. ولهذا التكتيك شبيه في مجال الإغواء. إذ أن ستاندال ينصحك، إذا أردت إغواء امرأة، بأن تغازل أختها أولاً.

إبق مترفعاً وسيأتي الناس إليك. إذ سيصبح كسب عواطفك نوعاً من التحدِّي لهم. وما دمت تقلِّد الملكة العذراء وتذكي آمالهم فإنك ستظل مغناطيساً يجتذب الاهتمام والرغبة.

صـــورة:

الملكة العذراء مركز الاهتمام، والرغبة، والعبادة فلم تخضع قطّ لهذا الخاطب أو ذاك. بل إن الملكة العذراء أبقتهم جميعاً يدورون حولها مثل الكواكب، عاجزين عن الإفلات من فلكها، ولكنهم لم يقتربوا منها أكثر على الإطلاق.

الشاهد: لا تلزم نفسك بأي شخص ولا بأي شيء، لأن ذلك يجعلك عبداً، عبداً لكل إنسان... وقبل كل شيء، إبق نفسك حراً من الالتزام والتعهدات، إذ أنها هي تدبير الشخص الآخر لاجتذابك إلى سلطته ليطويك تحت جناحه...

(بلتازار غراسيان، 1601-1658)

القسم الثاني: لا تلتزم بأحد ـ
ابق متسامياً فوق المعمعة

لا تدع الناس يجرُّونك إلى مشاجراتهم ومشاحناتهم الصغيرة. أَظْهِرْ لهم أنك مهتم ومؤيِّد، ولكن اعثر على طريقة للبقاء على الحياد؛ دع الآخرين يقومون بالاقتتال، وقف على مبعدة، مراقباً ومنتظراً. وعندما يرهق الاقتتال الأطراف المشتركة فيه، فإنهم سيكونون ناضجين للقطاف. والواقع أنك تستطيع أن تجعل إثارة المشاجرات بين الناس مهنة تمارسها، ثم تعرض عليهم وساطتك، فتكتسب سلطة كوسيط فيما بينهم.

مراعاة القانون

في أواخر القرن الخامس عشر، وجدت أقوى المدن ـ الدول الإيطالية ـ البندقية، وفلورنسا، وروما وميلانو ـ نفسها منغمسة في تناحر متواصل. وفوق صراعاتها ترفرف وتحوم الأمتان الفرنسية والإسبانية، على استعداد لالتقاط ما تقدران عليه من القوى الإيطالية التي أضعفها الاقتتال، وقد وقعت في وسطها دولة مانطُوَا الصغيرة، التي كان يحكمها الدوق الشاب جيان فرانشيسكو غونزاغا. وكان موقع مانطوا استراتيجياً في شمال إيطاليا. وبدت المسألة مسألة وقت قبل أن تبتلعها واحدة من القوى، فينتهي وجودها كدولة مستقلة.

وكان غونزاغا مقاتلاً شرساً وقائداً بارعاً للقوات، وقد أصبح نوعاً

الحِدْآن، والغربان، والثعلب

اتفقت الحِدْآن والغربان فيما بينها على تقاسم كل شيء يتم الحصول عليه من الغابة مناصفة. وذات يوم شاهدوا ثعلبًا جرحه الصيّادون مضطجعًا بلا حول ولا قوة تحت شجرة. فتجمهروا حوله. فقالت الغربان: «سنأخذ النصف العلوي من الثعلب». فقالت الحُدْآن: «إذن فسنأخذ نحن النصف السفلي». وعندئذ ضحك الثعلب وقال: «كنت أظن دائمًا أن الحِدْآن متفوقون

من قادة المرتزقة يعمل لأي طرف يدفع أفضل من غيره. وفي سنة 1490، تزوَّج إيزابيللا دِيسْتْ، ابنة حاكم دوقية إيطالية صغيرة أخرى هي دوقية فيرارا. وبما أنه كان يقضي معظم وقته بعيداً عن مانطوا، فقد وقعت مسؤولية الحكم بدلاً منه على إيزابيللا.

وجاء الاختبار الأول لها كحاكمة في سنة 1498، عندما كان ملك فرنسا لويس الثاني عشر يجهِّز جيوشه للهجوم على ميلانو. فبدأت الدول الإيطالية، بطريقتها القائمة على الغدر والخيانة، تبحث فوراً عن طرق للاستفادة من مصاعب ميلانو. ووعد البابا آليكساندر السادس بالتدخل، وبذلك أطلق يد فرنسا. كما أعطى البنادقة إشارة بأنهم لن يساعدوا ميلانو كذلك ـ وفي مقابل ذلك كانوا يأملون أن يعطيهم الفرنسيون مانطوا. وهكذا وجد حاكم ميلانو، لودوفيكو سْفُورْزَا، نفسه وحيداً تخلَّى عنه الجميع فجأة. فتوجه إلى إيزابيللا دِيسْتْ، التي كانت واحدة من أقرب أصدقائه (وقد أشيع أيضاً أنها كانت عشيقته)، وتوسَّل إليها أن تقنع الدوق غونزاغا بأن يهب لنجدته. وحاولت إيزابيللا، ولكن زوجها رفض أن يتحرَّك لأنه كان يرى أن قضية سفورزا لا أمل فيها. وهكذا انقضَّ لويس على ميلانو في سنة 1499، فأخذها بسهولة.

وراحت إيزابيللا تواجه مأزقاً: فإذا بقيت على ولائها للودوفيكو فسوف يتحرَّك ضدها الفرنسيون، ولكنها إذا تحالفت مع فرنسا بدلاً من ذلك، فسوف تكسب عداوات في أماكن أخرى من إيطاليا؛ مما يضع مانطوا في موقف حرج وخطير عند انسحاب لويس في آخر الأمر. وإذا تطلَّعت إلى البندقية أو روما لمساعدتها فسوف تقومان بابتلاعها، ببساطة، تحت ستار المجيء لمساعدتها. ومع ذلك كان عليها أن تفعل شيئاً مّا، إذ أن ملك فرنسا القوي كان ذا حضور ضاغط داهم وكأن أنفاسه تلفح رقبتها. فقرَّرت أن تصادقه، كما صادقت لودوفيكو سفورزا من قبل، بالهدايا المغرية، والرسائل الذكية المليئة بالفطنة والعبارات

في الخِلْقة على الغربان، وعلى ذلك فيجب أن يحصلوا على الجزء العلوي من بدني الذي يشكّل رأسي جزءًا منه، بما فيه من المخ وغيره من الأفاوية اللطيفة» فقالت الحِدّآن: «نعم، هذا صحيح، سنأخذ ذلك الجزء من الثعلب». فقالت الغربان: «كلا، أبدًا، بل يجب أن نحصل عليه نحن كما اتفقنا للتوّ». وهكذا نشبت حرب بين الطرفين المتنافسين، وسقط كثيرون من كلا الجانبين، ونجا القلائل الباقون بصعوبة. وبقي الثعلب هناك أيامًا يقتات على مهل من الحِدّآن والغربان الميتة. ثم غادر المكان وهو مرِحٌ وبصحة جيدة. وقال: «يستفيد الضعيف من مشاجرات الأقوياء».

خرافات هندية

الرشيقة. وبإمكانية مصاحبتها، لأن إيزابيللا كانت مشهورة كإمرأة ذات جمال وفتنةٍ آسرة لا تضاهى.

وفي سنة 1500، دعا لويس إيزابيللا إلى حفلة عظمى في ميلانو للاحتفال بانتصاره. وبنى ليوناردو دافنشي أسداً ميكانيكياً هائلاً. عندما يفتح فمه تتدفق منه زنابق طازجة، هي رمز الملكية الفرنسية. وفي الحفلة كانت إيزابيللا ترتدي واحداً من فساتينها الشهيرة (فقد كانت عندها خزانة ملابس أكبر مما تملكه أي أميرة في إيطاليا) ومثلما كانت تأمل بالضبط، فقد فتنت لويس وأسرته.. فتجاهل كل السيدات اللواتي تنافسن على إثارة اهتمامه. وسرعان ما صارت رفيقته الدائمة. وفي مقابل صداقتها تعهَّد بحماية استقلال مانطوا عن البندقية.

غير أن تراجع أحد الأخطار تلاه نشوء خطر آخر أكثر إثارة للقلق؛ وقد جاء هذه المرة من الجنوب، على شكل سيزار بورجيا. فقد بدأ بورجيا في سنة 1500، يزحف نحو الشمال باطراد مبتلعاً جميع الممالك الصغيرة في طريقه باسم أبيه، البابا آليكساندر. وكانت إيزابيللا تفهم سيزار فهماً كاملاً: فلا يمكن الثقة به، كما لا يمكن إهانته بحال من الأحوال. فكانت مضطرة إلى مصانعته بالتملق وإبقائه على مبعدة. وبدأت إيزابيللا بإرسال الهدايا إليه ــ صقور صيد، وكلاب ممتازة، وعطور، وعشرات من الأقنعة التي كانت تعرف أنه يرتديها دائماً كلما سار في شوارع روما. وأرسلت رسلاً يحملون تحيَّات فيها مداهنة متزلفة (رغم أن هؤلاء الرسل كانوا يعملون جواسيس لها كذلك). وفي إحدى المراحل سألها سيزار عما إذا كان يستطيع إيواء بعض القوات في مانطوا؛ فاستطاعت إيزابيللا أن تثنيه عن ذلك بأسلوب مهذَّب، إذْ أنها كانت تعلم جيداً أن القوات إذا رابطت في المدينة فلن تغادرها قطّ.

وحتى عندما كانت إيزابيللا تسحر سيزار بفتنتها، فقد أقنعت كل من حولها بالحرص على عدم التفوّه بكلمة قاسية واحدة عنه، فقد كان له جواسيس في كل مكان. وكان سيستخدم أية ذريعة للغزو. وعندما

إن ذوي القدرات العظيمة بطيئون في العمل. لأن تجنّب المناسبات التي تلزم بها نفسك أسهل من إخراج نفسك من الالتزام سالماً. فمثل هذه المناسبات تمتحن قدرتك على الحكم. وتجنُّبها أسهل من الخروج منها منتصرًا. فكل التزام يؤدي إلى التزام أكبر فتقترب جدًا من حافة الهاوية.

بلثازار غراسيان،

1658-1601

قبل بلثازار هذا بألف عام، سأل معاوية عَمْرو بن العاص عما بلغ من دهائه فقال: كنت لا أدخل مدخلاً إلاَّ وتمكّنتُ من الخروج منه سالماً. فردّ معاوية: أما أنا فلا أدخل في مدخل إلاَّ إذا ضمنت السلامة فيه سلفًا.

وقال الشاعر:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له
بوادرُ تحمي صفوَه أن يُكدَّرا

أنجبت إيزابيللا طفلاً، طلبت من سيزار أن يكون العرَّاب. بل أَدْلَتْ أمامه بإمكانية المصاهرة بالزواج بين أسرتها وأسرته. وبطريقةٍ مّا فعلت هذه الأساليب فعلها، لأن سيزار اكتسح كل شيء في طريقه واستولى عليه.. ولكنه أبقى على مانطوا.

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا أورد الأمر أصدرا
وكانت العرب تقول: «اتَّقوا غضب الحليم». لأن غضبه بطيء ولكنه إذا حدث كان مدمِّرًا.

[المترجم]

وفي سنة 1503، مات أبوه آليكساندر، وبعد بضع سنين خاض البابا الجديد، جوليوس الثاني، حرباً لطرد القوات الفرنسية من إيطاليا. وعندما انحاز حاكم فيرارا ـ آلفونصو، شقيق إيزابيللا ـ إلى جانب الفرنسيين، قرَّر جوليوس مهاجمته وإذلاله. ووجدت إيزابيللا نفسها وسط المعمعة من جديد: فالبابا في جانب، والفرنسيون وأخوها في الجانب الآخر. فلم تجرؤ على التحالف مع أي منهما. ولكن إهانة أي منهما كانت ستجلب كارثة كذلك. ومرة أخرى راحت تلعب لعبة الشك التي صارت خبيرة بها. فمن جهة أقنعت زوجها غونزاغا بالقتال إلى جانب البابا وهي تعلم أنه لن يقاتل بشدة كبيرة. ومن جهة أخرى سمحت للقوات الفرنسية بالمرور عبر مانطوا في طريقها لمساعدة فيرارا. وبينما راحت تشكو علناً من أن الفرنسيين قد «غزوا» أراضيها، فقد زودتهم سراً بمعلومات قيِّمة. ولكي تجعل الغزو يبدو معقولاً ظاهرياً لجوليوس، جعلت الفرنسيين يتظاهرون بنهب مانْطُوَا. وفعلت خطتها فعلها ثانيةً: فترك البابا مانطوا وشأنها.

وفي سنة 1513، وبعد حصار متطاول، دحر البابا فيرارا، وانسحب الفرنسيون. غير أن البابا، وقد أرهقه هذا الجهد، مات بعد أشهر قليلة. وبموته بدأت الدائرة الكابوسية من المعارك والمشاحنات الصغيرة تعيد نفسها.

لقد تغيَّرت أشياء كثيرة في إيطاليا أثناء عهد إيزابيللا. فقد جاء بابوات وذهبوا، وصعد سيزار بورجيا ثم سقط، وفقدت البندقية إمبراطوريتها. وغُزِيَتْ ميلانو، واضمحلَّت فلورنسا، ونُهِبَتْ روما على يد إمبراطور آل هابسبرغ الإسباني شارلس الخامس. وخلال هذا كله، لم

تنج مانطوا الصغيرة فحسب، بل ازدهرت، وصار بلاطها موضع حسد إيطاليا. وقيّض لثرائها وسيادتها، أن يظلاّ متماسكين قرناً كاملاً بعد وفاة إيزابيللا في سنة 1539.

التفسير

كانت إيزابيللا دِيسْتْ، تفهم وضع إيطاليا السياسي بوضوح مذهل. فما أن تنحاز إلى جانب أي من القوى في الميدان حتى تحكم على نفسك بالهلاك. فالقوي من شأنه أن يستولي عليك، والضعيف من شأنه أن يستنزفك. وأي تحالف جديد سيؤدي إلى عدو جديد. وبما أن هذه الدائرة كانت تثير مزيداً من المنازعات، فإن قوى أخرى سوف تُجَرُّ إليها، حتى لا تعود قادراً على تخليص نفسك، وفي نهاية الأمر سيكون من شأنك أن تنهار من الإنهاك المضني.

فوجّهت إيزابيللا مملكتها عبر الطريق الوحيد الذي من شأنه أن يوصلها إلى برّ الأمان. فلم تسمح لنفسها أن تفقد اتزان تفكيرها من خلال الولاء لدوق أو ملك. ولم تحاول إيقاف الصراع المستعر من حولها، لأن ذلك كان سيجرّها إلى أتونه. وعلى أية حال فقد كان في الصراع فائدة لها. فإذا كانت الأطراف المختلفة تقتتل حتى الموت، وتنهك نفسها في تلك العملية، فإنها لن تكون في وضع يمكّنها من ابتلاع مانْطُوا. وكان مصدر قوة إيزابيللا هو قدرتها البارعة على التظاهر بالاهتمام بشؤون كل طرف ومصالحه، بينما هي لم تلتزم عملياً إلاّ بنفسها ومملكتها.

إذا دخلت في قتال ليس من اختيارك فإنك ستفقد كل مبادرة. لأن مصالح المتقاتلين تصبح مصالحك، وتصبح أنت أداة لهم. تعلَّم السيطرة على نفسك، وأن تكبح ميلك الطبيعي للانحياز إلى طرف من الأطراف والاشتراك في القتال. كن ودوداً وجذاباً لكل من المتقاتلين، ثم ابتعد عندما يتصادمون. فمع كل معركة سيصبحون أضعف، بينما تصبح أنت أقوى مع كل معركة تتجنَّبها.

أُنثى النسر والخنزيرة

بنَتْ أُنثى نسرٍ عُشّاً على شجرة وفقست فيه صغارها. وجاءت خنزيرة برّيّة بجِرائها تحت الشجرة. فكانت أنثى النسر تطير بعيدًا وراء فرائسها، وتأتي بها إلى صغارها. وكانت الخنزيرة تقلب الأرض حول الشجرة وتصطاد في الغابة، فإذا جنّ عليها الليل جاءت لجرائها بشيء تأكله.

وعاشت أنثى النسر والخنزيرة في حسن جوار. فوضعت هرّة عجوزٌ خطّتها لتقضي على فراخ النسر وجراء الخنزيرة. فجاءت إلى أنثى النسر وقالت لها: «من الأفضل أن لا تطيري بعيدًا. احذري من الخنزيرة. إنها تخطط لمؤامرة شريرة، وسوف تقوّض جذور الشجرة، فأنت ترينها تقلب التراب بفنطيستها طيلة الوقت».

ثم ذهبت القطة العجوز إلى الخنزيرة وقالت لها: «أيتها الخنزيرة، ليست لديك جارة طيّبة، فإني سمعت أنثى النسر تقول لفراخها: «يا فراخي العزيزة، سأطعمكم خنزيرًا صغيرًا لطيفًا، فما أن تذهب الخنزيرة حتى آتيكم بخنزير صغير رضيع».

ومنذ ذلك الحين لم تعد أنثى النسر تطير خلف الفرائس، ولم تعد الخنزيرة تذهب إلى الغابة. فهلكت فراخ الأولى وجراء الثانية جوعًا، وتغذّت عليهم السنورة العجوز.

خرافات

ليو تولستوي، 1828–1910

عندما يتصارع الجهلول (طائر طويل المنقار) وبلح البحر فإن صياد السمك هو المستفيد.

قول صيني قديم

مفاتيح السلطة

لكي تنجح في لعبة السلطة، يتعيَّن عليك أن تتحكَّم في عواطفك. ولكن حتى إذا نجحت في الحصول على مثل هذه السيطرة على النفس، فإنك لن تستطيع قطّ أن تسيطر على الأمزجة المتقلبة لمن حولك. ويمثل هذا خطراً كبيراً. فمعظم الناس يتصرفون وسط دوامة من العواطف، فيبدون ردود فعل باستمرار، فيثيرون مشاجرات وصراعات. فتحكمك بنفسك واستقلالك لن ينجم عنه إلاَّ إقلاقهم وإثارة غيظهم. فيحاولون جرَّك إلى الدوامة، متوسلين إليك أن تنحاز إليهم في معاركهم التي لا تنتهي، أو أن تصالحهم لتُحِلَّ السلام فيما بينهم. فإذا خضعت لمناشداتهم العاطفية فسوف تجد ذهنك **أنت** ينشغل شيئاً فشيئاً بمشاكلهم هم. فلا تسمح لأي تعاطف أو شفقة تملكهما أن يمتصَّاك إلى داخل الأتون. فهذه لعبة لن تستطيع كسبها؛ إذْ أنَّ الصراعات لا يمكن إلاَّ أن تتكاثر وتتوالد.

ومن جهة أخرى فإنك لا تستطيع أن تتنحَّى جانباً بشكل كامل، لأن ذلك سيسبب إهانةً لا ضرورة لها. فلكي تمارس اللعبة على نحو ملائم، يتعيَّن عليك أن تبدو مهتماً بمشاكل الآخرين، بل وأن تبدو أحياناً كأنك تنحاز إلى جانبهم. ولكن بينما ترسل إشارات خارجية سطحية من الدعم، فإن عليك أن تحافظ على طاقتك الداخلية، وعقلانيتك بإبقاء عواطفك غير مشتبكة أو مشغولة. ومهما حاول الناس بشدة أن يجرّوك إلى الداخل، فلا تدع اهتمامك بشؤونهم ومناحراتهم التافهة يتعدَّى السطح أبداً. اعطهم هدايا، واستمع إليهم بنظرة متعاطفة معهم. بل والعب دور الساحر الجذاب بين الفينة والفينة، ولكن من الناحية الداخلية، أبق كلاً من الملوك المتوددين وأمثال بورجيا من الغدارين،

ثمن الحسد

بينما كانت امرأة فقيرة واقفةً في السوق تبيع الأجبان، جاء قطٌّ فاختطف قطعة جبن. ورأى كلبٌ السارق فحاول أن يأخذ منه قطعة الجبن. فصمد القط في وجه الكلب، واشتبك الاثنان، فنبح الكلبُ وهرَّ بخشونة، وبصق القطّ وخمش، ولكنهما لم يتمكّنا من حسم المعركة. فاقترح القطّ في آخر الأمر: «دعنا نذهب إلى الثعلب ونحكّمه في هذه القضية». فقال الكلب: «موافق». فذهبا إلى الثعلب.

على مبعدة منك جميعاً على حدٍّ سواء. إذ أنك برفض الالتزام، وبالحفاظ على استقلالك، تحتفظ بزمام المبادرة. فتظل تحركاتك خاضعة لاختيارك أنت، وليست ردود فعل دفاعية إزاء الدفع والسحب والجذب ممَّن هم حولك.

إن تباطؤك في سحب سلاحك قد يكون بحد ذاته سلاحاً، وخصوصاً إذا تركت الآخرين ينهكون أنفسهم بالاقتتال، ثم استفدت من استنزافهم المنهك.

ففي الصين القديمة، قامت مملكة شين ذات مرة تغزو مملكة هْسِينْغْ. فاعتقد هْوَانْ، حاكم مقاطعة مجاورة لها، أنه ينبغي عليه أن يهرع للدفاع عن هسينغ، ولكن مستشاره نصحه بالانتظار، قائلاً: «إن هسينغ لم تُدَمَّر بعد، وشين لم تُسْتَنْزَفْ بعد، وإذا لم تُستنزَف شين [فإننا] لن نكون ذوي تأثير كبير. وبالإضافة إلى ذلك فإن فضل دعم دولة في خطر ليس كبيراً بحجم فضيلة إحياء دولة مدمرة». فأخذ ذلك الحاكم بنصيحة مستشاره هذه. وكما توقع، فقد حصل هوانغ فيما بعد، على المجد من طرفيه، وهما: إنقاذ هسينغ من حافة الدمار، ومن ثم غزو شين المستنزَفة. فقد بقي خارج القتال حتى أنهكت القوات المشتركة فيه بعضها بعضاً. وعند تلك النقطة، كان تدخله سليماً.

فهذا ما يسمح لك به إمساكك عن الانغماس في المعمعة: وقتٌ لتضع نفسك في مركز الاستفادة من الوضع عندما يبدأ أحد الطرفين بالاندحار. ويمكنك أيضاً أن تسير في اللعبة خطوة أبعد، بالوعد بدعم كلا طرفي الصراع بينما أنت تناور لكي تكون أنت الطرف الخارج رابحاً من الصراع. فهذا هو ما فعله كاستروشيو كاستراكاني، حاكم مدينة لوكا الإيطالية في القرن الرابع عشر عندما كانت لديه مخططات ضد مدينة بيستويا. فقد كان حصارها باهظاً يكلف أرواحاً وأموالاً. ولكن كاستروشيو كان يعرف أن بيستويا فيها فئتان متنافستان تكره كل منهما الأخرى، وهما السود والبيض. فتفاوض مع السود، واعداً بمساعدتهم

فاستمع إلى حججهما بحكمة القاضي ثم وبّخهما قائلاً: «أيها الحيوانان الأحمقان، لماذا تستميتان هكذا؟ فإن أردتما قسمت قطعة الجبن بينكما فترضيان كلاكما».

فقال القط والكلب: «موافقان». فتناول الثعلب سكّينهُ وقطع الجبنة إلى قطعتين. ولكنه بدلاً من قطعها بالطول، قطعها بالعرض. فاحتجّ الكلب: «قطعتي أصغر!». فنظر الثعلب بحكمة من خلال نظّارتيه إلى قطعة الكلب، وقرّر: «أنت على حق على حق تمامًا!» وهكذا قضم قطعةً من حصة القطّ، قائلاً: «هذا سيجعلهما حصّتين متساويتين!» وعندما رأى القط ما فعل الثعلب شرع يولول:

«انظر! لقد صارت حصّتي أصغر الآن!».

فلبس الثعلب نظّاريته، ونظر بحكمة إلى حصّة القطّ وقال: «أنت على حقّ! انتظر لحظة، وسأصحّح الوضع»، وعاد فقضم قطعة من حصّة الكلب. واستمرّ هذا الأمر طويلاً والثعلب يقضم تارةً من حصّة الكلب وتارةً من حصّة القطّ حتى أكل قطعة الجبن كلها أمام أعينهما.

مجموعة قصص شعبية

تحرير: ناثان أوسوبيل، 1948

ضد البيض؛ وبدون علمهم، وعد البيض بمساعدتهم ضد السود. وقد وفى كاستروشيو بوعوده للفريقين، فأرسل جيشاً إلى بوابة للمدينة يسيطر عليها السود، فرحَّب به الحرس وأدخلوه بالطبع. وفي تلك الأثناء دخل واحد آخر من جيوشه عبر بوابة يسيطر عليها البيض. واتحد الجيشان في وسط المدينة فاحتلاها وقتلا قادة الفئتين معاً، وأنهيا الحرب الداخلية، واستوليا على بيستويا لصالح كاستروشيو.

إن المحافظة على استقلالك يعطيك خيارات عندما يتبادل الناس الضربات ـ فتستطيع أن تؤدي دور الوسيط الساعي إلى السلام بينما أنت في الحقيقة منهمك في تأمين مصالحك الخاصة. وتستطيع أن تتعهد بمساعدة طرفه، وقد يتودَّد إليك الطرف الثاني بعرضٍ أعلى، أو قد تظهر أنك تتعامل مع الطرفين معاً، مثل كاستروشيو، ثم تحرِّض كلاً من الطرفين المتعاديين على الآخر.

وفي غالب الأحيان قد تتعرَّض لإغراء الانضمام إلى الطرف الأقوى عندما يندلع صراع، أو إلى الطرف الذي يعرض عليك مزايا ظاهرة في تحالف. فهذه مسألة فيها مخاطر. فأولاً كثيراً ما يكون من الصعب التنبؤ بالطرف الذي سيكسب في المدى البعيد. وحتى إذا كان حدسك صحيحاً وتحالفت مع الطرف الأقوى، فقد تجد نفسك مبلوعاً وضائعاً، أو منسياً لأن ذلك يناسب المنتصرين عند كسبهم للمعركة. ومن جهة أخرى فإنك إذا انضممت إلى الطرف الأضعف، فقد حكمت على نفسك بالهلاك. ولكن العب لعبة الانتظار، ولن تكون خاسراً.

في ثورة تموز/ يوليو 1830، في فرنسا، وبعد ثلاثة أيام من الشغب والاضطرابات، جلس السياسي الفرنسي تاليران ـ الذي أصبح عجوزاً ـ عند شبَّاكه في بيته بباريس، ينصت إلى النواقيس التي راحت تقرع إيذاناً بانتهاء الاضطرابات. فالتفت إلى مساعدٍ له وقال: «آه، النواقيس! إننا نفوز»، وسأله المساعد من هم «نحن» يا أميري؟ فأشار إليه تاليران أن

يلزم الهدوء، ثم ردَّ عليه: «لا تنطق بكلمة! سأقول لك مَنْ «نحن» غداً». كان يعرف أن الحمقى فقط هم الذين يتسرَّعون في وضع كهذا، وأن التعجل في الالتزام يجعلك تفقد القدرة على المناورة. كما أن احترام الناس لك يتناقص. فيفكِّرون أنك قد تلتزم قضيةً أخرى مختلفة غداً، ما دمت قد أعطيت نفسك بمثل هذه السهولة لهذه القضية. فالحظ السعيد إله متقلب كثيراً ما يمرّ من هذا الجانب إلى ذاك. فالالتزام بجانب واحد يحرمك من ميزة الوقت ورفاهية الانتظار. دع للآخرين أن يقعوا في غرام هذه الجماعة أو تلك؛ أما أنت فلا تهجم من ناحيتك، ولا تفقد اتزانك.

وأخيراً، فإن هناك مناسبات يكون أعقل تصرفٍ فيها هو أن تتخلَّى عن كل تظاهر بمظهر الدعم، وبدلاً من ذلك تعلن على الملأ استقلالك واعتمادك على نفسك. فوقفة الاستقلال الباذخة الفخمة هامة على وجه الخصوص للذين يحتاجون إلى كسب الاحترام. وقد أدرك ذلك جورج واشنطن في عمله لتأسيس الجمهورية الأميركية الفتيّة على أرض صلبة. وبصفته رئيساً، فقد تجنَّب إغراء عقد تحالف مع فرنسا أو إنكلترا، رغم الضغط عليه كي يفعل. فقد كان يريد للبلد أن يكسب احترام العالم من خلال استقلالها. ورغم أن معاهدة مع فرنسا كان يمكن أن تساعده في الأمد القصير، فقد كان يعلم أن إقامة استقلال الأمة سيكون أكثر فعالية على المدى البعيد، لأن على أوروبا أن ترى الولايات المتحدة كقوة مساوية لها.

تذكَّر: ليس لك سوى طاقة محدودة وزمن محدود. وكل لحظة تهدرها على شؤون الآخرين تنقص من قدرتك. وقد تخشى من إدانة الناس لك باعتبارك شخصاً بلا قلب، ولكن حفاظك على استقلالك واعتمادك على نفسك سيكسب لك في آخر الأمر مزيداً من الاحترام ويضعك في مركز سلطة تستطيع منه أن تختار أن تساعد الآخرين بمبادرة تملكها أنت.

صورة: أجَمَة شـجيراتٍ في الغابة، تلتصق شـجيرة بأخرى فتشـتبك مع جارتها بأشـواكها وتمدّ الأجَمَة ببطءٍ مجالها غير القابل للاختراق. فلا يسـتطيع النمـوّ والارتفاع فوق الأجَمَـة إلاّ مـا يبقى علـى مبعدة ويقف منفصلاً.

الشـاهد: اعتبر أن عدم التورُّط في اشتباك هو عمل أشجع من الفوز في المعركة، وحيث يوجد أحمق واحد متدخِّل من قبل، احرص على أن لا يكون هنا اثنان.

(بلتازر غراسيان، 1601-1658)

الانقلاب

إن قِسْمَيْ هذا القانون كليهما ينقلبان ضدك إن جعلته يزيد عن حدِّه. فاللعبة المقترحة هنا دقيقة وصعبة. فإذا حرَّضت أطرافاً أكثر من اللازم ضد بعضها بعضاً فقد تكشف الأطراف مناورتك فتتفق عليك معاً. وإذا أبقيت الأعداد المتزايدة من خُطَّاب ودك ينتظرون وقتاً أطول من اللازم فسوف لن توحي لهم بالرغبة، بل بعدم الثقة، ويبدأ الناس في فقدان اهتمامهم بك. وفي آخر الأمر قد تجد أن الأمر جدير بالتزام أحد الأطراف، ولو من أجل التظاهر فقط كي تثبت أنك قادر على الارتباط.

وحتى عند الالتزام فإن المفتاح يكمن في صيانة استقلالك الداخلي وحماية نفسك من التورط العاطفي. فحافظ على الخيار الصامت، أي قدرتك على الانسحاب أو المغادرة في أي لحظة لاستعادة حريتك إذا بدأ الطرف الذي أنت متحالف معه في الانهيار. وعند قفزك من السفينة فسيعطيك الأصدقاء الذين كسبتهم أثناء عملية التودد إليك كثيراً من الأماكن البديلة.

القانون

21

العب دور المغفل لتمسك بمغفل ـ اظْهِرْ أنَّك أبلد من هدفك

الحكم

لا أحد يحب الشعور بأنه أغبى من الشخص الآخر. فالخدعة إذن هي أن تجعل ضحاياك يشعرون بأنهم أذكياء ـ وليسوا أذكياء فقط، بل أذكى منك. وعندما يقتنعون بذلك، فإنهم لن يشُكُّوا أبداً في أن لديك أهدافاً خفية.

مراعاة القانون

في شتاء سنة 1872، كان المموِّل الأميركي آزبري هاربندنغ، يزور لندن عندما تلقَّى برقية: لقد تم اكتشاف منجم ماس في الغرب الأميركي. وقد جاءت البرقية من مصدر موثوق به ـ هو وليام رالستون، صاحب مصرف كاليفورنيا ـ ومع ذلك فقد اعتبرها هاربندنغ نكتة عملية، ربما أوحى بها الاكتشاف الحديث لمناجم الماس الضخمة في جنوب إفريقيا. صحيح أن الجميع كانوا متشككين عندما وردت أول التقارير عن اكتشاف الذهب في الولايات المتحدة الغربية، ثم اتضح أن تلك التقارير كانت صحيحة. أمّا ظهور منجم ماس في الغرب! عرض هاربندنغ البرقية على زميله المموِّل، البارون روتشيلد (واحد من أغنى رجال العالم)، قائلاً إنها لا بد أن تكون نكتة. غير أن البارون أجاب: «لا تكن متأكداً من ذلك بشكل زائد عن الحد، فأميركا بلد شاسع جداً، وقد أعطت العالم كثيراً من المفاجآت في السابق. فلعل لديها مفاجآت أخرى مختزنة». وعلى الفور عاد هاربندنغ إلى الولايات المتحدة في أول سفينة وجدها.

وعندما وصل إلى سان فرانسيسكو كانت في الجو إثارة حماسية تعيد إلى الذاكرة أيام هجمة الذهب في أواخر أربعينات القرن التاسع عشر. وكان الباحثان القاسيان فيليب أرنولد وجون سلاك هما اللذان عثرا على منجم الماس. ولم يبوحا بموقعه في وايومينغ، ولكنهما كانا قبل ذلك بعدة أسابيع قد اصطحبا إليه خبيراً محترماً للغاية. وسلكا به طريقاً

لا يفخر الإنسان بشيء أكثر من افتخاره بقدرته العقلية، لأنها هي التي بوّأته مكانته القيادية في عالم الحيوان. وإنه لأمرٌ متهوِّرٌ للغاية أن تجعل أيَّ شخص يرى أنك متفوق عليه بشكل حاسم في هذا المجال، وأن تجعل الآخرين يرون ذلك أيضًا... وعليه فبينما تستطيع الثروة والمكانة أن تعتمدا دائمًا على معاملة محترمة في المجتمع، فإن هذا شيء لا تستطيع القدرة العقلية أن تتوقعه أبدًا. بل إن تجاهل الناس لها هو أفضل معروفٍ يُسْدى إليها وإذا تنبّه الناس إليها على الإطلاق، فإن السبب هو أنهم يعتبرونها قطعةً من الوقاحة، أو يرون أن صاحبها ليس له حق مشروع فيها، ومع ذلك فهو يجرؤ على الافتخار بها، وردًا على ذلك، وانتقامًا من سلوكه، يحاول الناس سرًا أن يذلّوه بطريقة أخرى. وإذا أجّلوا ذلك فإنما يؤجّلونه إلى فرصة مناسبة. فقد يكون الإنسان متواضعًا في سلوكه بالقدر المستطاع. ولكنه لا يكاد يجعلهم يضربون صفحًا عن جريمة شموخ قامته فوقهم عقليًا. ففي ديوان بستان الورد، يقول [الشاعر الفارسي] السعدي: «ينبغي عليك أن تعرف أن الحمقى

متعرِّج الدوائر كي لا يحدس مكانه. وعند وصول الخبير قام بالمراقبة أثناء استخراج الماس من المنجم. وعند عودته إلى سان فرانسيسكو أخذ الجواهر المستخرجة إلى تجار مختلفين فقدَّر أحدهم قيمتها بمليون ونصف مليون دولار.

فطلب هاربندنغ ورالستون من آرنولد وسلاك أن يرافقاهما عائدين إلى نيويورك، حيث يقوم تاجر الجواهر شارلس تيفاني بالتدقيق في التقديرات الأصلية. فردَّ الباحثان عن الماس رداً قلقاً ــ فقد شمَّا رائحة فخ: كيف يثقان بسكان المدن الأنيقين المخادعين؟ وماذا إنْ تَدَبَّر تيفاني والممولون أَمْر سرقة المنجم كله من تحت أنوفهم؟ حاول رالستون تخفيف مخاوفهما بإعطائهما مائة ألف دولار ووضع ثلاثمائة ألف دولار لحسابهما لدى طرف ثالث. فوافق صاحبا المنجم على ذلك.

وسافرت المجموعة الصغيرة إلى نيويورك، حيث عقد اجتماع في قصر صاموئيل ل. بارلو، بحضور زهرة أرستقراطيِّي المدينة ــ الجنرال جورج بريتون ماكليلان، قائد القوات الاتحادية في الحرب الأهلية؛ والجنرال بنيامين بتلر، وهوراس غريلي، رئيس تحرير صحيفة **النيويورك تريبيون**؛ وهاربندنغ؛ ورالستون؛ وتيفاني. ولم يتغيَّب سوى سْلاكْ وآرنولد ــ فقد قرَّرا أن يذهبا للتنزه، باعتبارهما سائحين في المدينة.

وعندما أعلن تيفاني أن الجواهر حقيقية، وقيمتها تعادل ثروة، لم يكد الممولون يستطيعون السيطرة على حماسهم. فأبرقوا إلى روتشيلد وغيره من ملوك المال لإخبارهم عن منجم الماس ودعوتهم للمشاركة في استثماره. وفي الوقت نفسه، أخبروا المنقبين أنهم يريدون إجراء اختبار آخر. إذْ أنهم أصرُّوا على أن يذهب خبيرٌ من اختيارهم بصحبة سلاك وآرنولد إلى الموقع للتأكد من ثروته. فوافق المنقبان على م. وفي تلك الأثناء قالا إنهما مضطران إلى العودة إلى سان فرانسيسكو. أما الجواهر التي فحصها تيفاني فقد تركاها وديعة عند هاربندنغ.

يكرهون ملاقاة العقلاء أكثر مئة مرة من نفور العقلاء من صحبة الحمقى».

ومن جهة أخرى، فإن مما يوصى به في الحقيقة أن يتغابى المرء. فمثلما يلائم الدفءُ الجسمَ، فإن العقل يستفيد من الشعور بتفوقه؛ ويسعى المرء إلى الصحبة التي تعطيه مثل هذا الشعور، بالغريزة نفسها التي يقترب بها من الموقد أو يمشي في الشمس إن أراد أن يدفأ. ولكن هذا يعني أنه سيتعرض للكراهية بسبب تفوقه. وإذا أراد المرء أن يحبه الآخرون، فإن عليه في الحقيقة أن يكون ناقصًا من الناحية العقلية.

آرثر شوبنهاور

1860–1788

قبل شوبنهاور بألف عام تناول شعراؤنا الفحول هذا الموضوع من مختلف جوانبه، فقال أبو الطيِّب المتنبِّي:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينْعمُ!

وقال أبو تمام:

ينـال الفتى من رزقه وهو جـاهلٌ
ويكْدى الفتى في رزقه وهو عالمُ
ولو كانت الأرزاق تُجرى على الحِجى
هلكْن إذنْ من جهلهنّ البهـائمُ!

وقال المعرِّيّ:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيًا
تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنّي جـاهـلُ

وبعد عدة أسابيع التقى بالمنقِّبَيْن في سان فرانسيسكو رجل يدعى لويس جانين، وهو أفضل خبير تعدين في البلد. وكان جانين شكاكاً بالفطرة، مصمِّماً على التأكد من أن المنجم ليس زائفاً. وكان بصحبته هاربندنغ وعدة ممولين آخرين مهتمين بالموضوع. وكما كان الحال مع الخبير السابق، فقد اقتاد المنقبان الفريق عبر سلسلة معقَّدة من الوديان الضيِّقة بحيث شوَّشا تفكيرهم حول موقع مكانهم. وعند وصولهم إلى الموقع، أخذوا يراقبون جانين مذهولين وهو يحفر المكان طولاً وعرضاً، مسوِّياً التلال الصغيرة، وقالباً كتل الصخر حتى عثر على قطع من الزمرد والياقوت والصفّير (الياقوت الأزرق الضارب إلى الخضرة) والماس أكثر من كل شيء. واستمر الحفر ثمانية أيام، وفي آخرها اقتنع جانين: فأخبر المستثمرين أنهم باتوا يملكون أغنى حقل في تاريخ التعدين. وقال لهم: «إن مائة رجل معهم الآلات الملائمة يكفون لجعله يضمن إرسال ماساتٍ قيمتها مليون دولار كل ثلاثين يوماً».

وقال الطغرائي:

أهبْتُ بالحظ لو ناديتُ مستمعًا
والحظُّ عنّي بالجهال في شُغُلِ
علّي إن بدا فضلي ونقْصُهُمو
نـــام عنـهـم أو تنبّه لي!
وإن علاني مَنْ دوني فلا عجبٌ
لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل

[المترجم]

وعند العودة إلى سان فرانسيسكو بعد بضعة أيام، تصرَّف هاربندنغ ورالستون وشركاهم بسرعة لتشكيل شركة من المساهمين الخصوصيين الفرديين برأسمال قدره عشرة ملايين دولار. غير أنه كان عليهم أولاً أن يتخلَّصوا من آرنولد وسلاك. وكان ذلك يعني إخفاء حماسهم ـ فلم يكونوا بالتأكيد يريدون كشف القيمة الحقيقية للمنجم ـ. وهكذا لعبوا دور المتمارض أو المتماوت. فقالوا للمنقِّبَيْن: «من يدري إن كان جانين على حق، فإن المنجم قد لا يكون غنياً بقدر ما نفكِّر». فلم ينجم عن ذلك إلاَّ غضب المنقِّبَيْن. فجرَّب المموِّلون خطة تكتيكية أخرى فأخبروا الرجلين أنهما إذا أصرَّا على امتلاك حصص في المنجم فقد ينتهي الأمر إلى أن يسلبهما إياها ملوك المال والمستثمرون عديمو الضمير الذين سيديرون الشركة. وقالوا لهما إن من الخير لهما أن يقبلا بالسبعمائة ألف دولار المعروضة عليهما ـ وكان هذا مبلغاً هائلاً بمقاييس تلك الأيام ـ

ويضعا طمعهما جانباً. فكان هذا شيئاً بَدَا أن المنقبين فهماه، فوافقا أخيراً على أخذ المبلغ لقاء التوقيع على التخلي عن حقهما في الموقع للممولين، مع ترك خرائطه لهم.

وانتشر خبر المنجم كالنار في الهشيم. وتحرَّك المنقبون عبر ولاية وايومينغ. وفي الوقت نفسه شرع هاربندنغ ومجموعته بصرف الملايين التي جمعوها من مستثمريهم، فاشتروا معدات، واستأجروا أفضل العاملين في هذا المجال، وأثثوا مكاتب باذخة في نيويورك وسان فرانسيسكو.

وبعد بضعة أسابيع، وفي رحلتهم الأولى إلى الموقع، علموا بالحقيقة القاسية المريرة: إذْ لم يعثروا على ماسة أو ياقوتة واحدة. فقد كان الأمر كله مزيفاً. فأصابهم الخراب. لقد اجتذب هاربندنغ ـ عن غير قصد ـ أغنى الرجال في العالم إلى أكبر عملية احتيال في القرن التاسع عشر.

التفسير

لقد نجح آرنولد وسلاك في خدعتهما الهائلة المذهلة ليس باستخدام مهندس مزيف، أو برشوة تيفاني: فقد كان الخبراء كلهم حقيقيين. وكلهم اعتقدوا بصدق بوجود المنجم وبقيمة الجواهر. ولم يكن ما خدعهم جميعاً سوى آرنولد وسلاك نفسيهما. فقد بدا الرجلان ريفيّين أخرقين ساذجين إلى درجة أن أحداً لم يعتقد ولو للحظة واحدة أنهما قادران على مثل هذه الخدعة الجريئة الوقحة. لقد راعى المنقبان ببساطة قانون التظاهر بأنهما أغبى من هدفهما ـ وهذه هي الوصية الأولى للمحتال الماكر.

وكانت التعبويات السَّوْقيَّة للخدعة بسيطة تماماً. فقبل أشهر من الإعلان عن «اكتشاف» منجم الماس، كان آرنولد وسلاك قد سافرا إلى أوروبا، حيث اشتريا بعض الجواهر الحقيقية بحوالي اثني عشر ألف

دولار (هي جزء من المال الذي كانا قد ادخراه من أيام عملهما في التنقيب عن الذهب)، ثم زرعا «المنجم» بهذه الجواهر التي استخرجها الخبير الأول وجاء بها إلى سان فرانسيسكو. أما تجار المجوهرات الذين قوَّموا هذه الأحجار، ومعهم تيفاني نفسه فقد أصابتهم الحمى فقدَّروها بأكثر من قيمتها بكثير. ثم دفع رالستون للمنقِّبَيْن مائة ألف دولار كضمانة، فسافرا فوراً إلى آمستردام بعد رحلتهما إلى نيويورك، حيث قاما بكل بساطة بشراء أكياس من الجواهر غير المصقولة، قبل عودتهما إلى سان فرانسيسكو. وفي المرة الثانية التي زرعا فيها المنجم، كان فيه كثير من الجواهر تنتظر مَنْ يعثر عليها.

غير أن فاعلية الخطة لم ترتكز على مثل هذه الحيل، بل على حقيقة كون آرنولد وسلاك قد مَثَّلا دوريهما بإتقان كامل. ففي رحلتهما إلى نيويورك، حيث اختلطا بأصحاب الملايين وملوك المال، حيث ضخَّما صورتهما كريفيين ساذجين أخرقين.. فكانا يرتديان سراويل وسترات أصغر من حجمهما بدرجتين، ويمثلان عدم التصديق المدهوش إزاء كل شيء يريانه في المدينة الكبيرة. فلم يصدق أحد أن هذين المغفلين الريفيين قادران على خداع أكثر ممولي العصر مكراً وتجرداً من المبادىء الخُلُقيَّة. وبمجرَّد أن قبل بوجود المنجم كلٌّ من هاربندنغ، ورالستون، وحتى روتشيلد، فإن أي شخص يشك فيه إنما كان يطعن في ذكاء أنجح التجار ورجال الأعمال في العالم.

وفي خاتمة المطاف، دُمِّرت سمعةُ هاربندنغ، فلم تقم له قائمة بعد تلك الواقعة. وتعلَّم روتشيلد درسه فلم يسقط ضحية لخديعة بعدها قطّ، وأخذ سلاك أمواله واختفى عن الأنظار فلم يعثر له على أثر. أما آرنولد فعاد ببساطة إلى موطنه في كنتكي؛ فقد كان بيعه لحقوقه التعدينية صفقة مشروعة رغم كل شيء؛ وقد تلقى المشترون أفضل مشورة، فإذا ما نضب المنجم من الجواهر فتلك مشكلتهم. واستخدم آرنولد الأموال ليوسع مزرعته كثيراً وليفتح مصرفاً خاصاً به.

مفاتيح السلطة

إن شعورنا بأن شخصاً آخر أذكى منّا هو شعور لا يكاد يطاق. ونحن في العادة نبرره بطرق مختلفة: «لديه معرفة مستقاة من الكتب فقط، أما أنا فمعرفتي حقيقية». «لقد دفع لها والداها كي تتلقى ثقافة جيِّدة. ولو كان لدى والديَّ أموال كأموال والديها، ولو كانت لي امتيازاتها. . .». «إنه ليس من الذكاء بقدر ما يظنّ»، وأخيراً وليس آخراً: «ربما كانت أعرف منِّي بحقل اختصاصها الضيِّق، ولكنها فيما وراء ذلك ليست ذكية على الإطلاق. وحتى إينشتاين كان ساذجاً خارج نطاق الفيزياء».

ونظراً لأن فكرة الذكاء شديدة الأهمية لغرور معظم الناس، فإن من المهم عدم إهانة قوة ذهن شخصٍ مّا أو الطعن فيها. فذلك ذنب لا يغتفر. ولكنك إن استطعت أن تجعل هذه القاعدة الحديدية تعمل لصالحك، فإنها تفتح أمامك كل أنواع طرائق الخداع. ولذا طَمْئِن الناسَ بدون وعي بأنهم أذكى منك، أو حتى بأن فيك شيئاً من البَلَه والغفلة؛ وعندئذ تستطيع أن تدحرهم بشكل حاسم. فشعور التفوق العقلي الذي تمنحهم إياه سوف يجرِّد عضلات الشك لديهم من قوَّتها.

في سنة 1865، كان المستشار البروسي أوتو فون بسمارك يريد من النمسا أن توقع معاهدة معينة. وكانت تلك المعاهدة في صالح بروسيا كلياً وضد مصالح النمسا. وكان على بسمارك أن يمارس تخطيطاً استراتيجياً كي يجعل النمسويين يوافقون عليها. ولكنَّ المفاوض النمسوي، الكونت بلوم، لاعب ورق جشعاً. وكانت لعبته المفضلة هي «الكوينز». وكثيراً ما كان يقول إنه يستطيع الحكم على شخصية أي إنسان من الطريقة التي يلعب بها الكوينز. وكان بسمارك يعرف قول بلوم هذا.

وفي الليلة السابقة لبدء المفاوضات، تعمَّد بسمارك ـ بكل براءة ـ أن يمارس لعبة كوينز مع بلوم. وقُدِّر للبروسي أن يكتب فيما بعد:

«كانت تلك آخر مرة لعبتُ فيها كوينز. وقد لعبت بتهور أذهل الجميع. وخسرت عدة آلاف تالر [عملة ذلك العصر]، ولكنني نجحتُ في خداع [بلوم]، لأنه ظنَّني أكثر تهوُّراً ومغامرة مما أنا عليه، وهكذا استسلمت له في اللعبة». وبالإضافة إلى الظهور بمظهر المتهوِّر، فإن بسمارك مثَّل أيضاً دور الأحمق الذي لا عقل له. فتفوَّه بأشياء سخيفة مضحكة وتحرَّك بطريقة مضطربة خرقاء فيها فائض من الطاقة العصبية.

ونجم عن هذا كله أن شَعَرَ بلوم بأنه قد جمع معلومات قيِّمة. وكان يعرف أن بسمارك عدوانيّ ـ فقد كان لبسمارك مثل تلك السمعة، وقد لعب عمداً بطريقة أكدتها. وكان بلوم يعلم أن الرجال العدوانيين يمكن أن يكونوا حمقى ومتسرِّعين. وبناء على ذلك، فعندما حان الوقت لتوقيع المعاهدة، ظنَّ بلوم أن لديه ميزة. فقد اعتقد أن شخصاً أحمق غير مبالٍ مثل بسمارك، غير قادر على إجراء حسابات وخداع بعقل بارد وجأش رابط. ولذلك لم يلقِ على المعاهدة أكثر من نظرة عابرة قبل أن يوقِّعها ـ ولم يقرأ سطورها بدقة. وعندما جفَّ الحبر، أعلن بسمارك في وجه بلوم بقوة: «حسناً، لم أكن أعتقد أبداً أنني سأجد دبلوماسياً نمسوياً على استعداد لتوقيع تلك الوثيقة!».

عند الصينيين تعبير عن «التنكر في زي خنزير لقتل نمر». وفي ذلك إشارة إلى أسلوب الصيد القديم، عندما كان الصياد يرتدي جلد خنزير وفنطيسته، ويقلِّد شخيره. فيظن النمر القوي أن خنزيراً قادم نحوه، فيتركه يقترب، ويتلمَّظ على وجبة سهلة. ولكن الصياد هو الذي يملك الضحكة الأخيرة.

إن التنكر في زي خنزير يفعل العجب بالمتغطرسين والواثقين بأنفسهم ثقة زائدة عن الحد، مثل النمور. فكلما كان افتراسك أسهل في نظرهم، زادت السهولة التي تستطيع بها قلب الموائد. كما أن هذه الخدعة مفيدة إذا كنت طموحاً ولكنك تجد نفسك في موقع منخفض

على سلَّم الرتب. إن تظاهرك بأنك أقل ذكاءً مما أنت عليه، وحتى بأن فيك شيئاً من الحمق، هو القناع الأكمل. اظهر كخنزير غير مؤذٍ، وعندئذٍ لن يعتقد أحد أنك تضمر طموحاً خطراً. بل إنهم قد يرفّعونك ما دمت تبدو محبوباً ومطيعاً إلى هذا الحد. وقد استعمل هذه الخدعة كلٌّ من كلوديوس قبل أن يصبح إمبراطور روما، وأمير فرنسا الذي صار فيما بعد لويس الثالث عشر، عندما شعر الذين فوقهما أنه قد تكون لديهما خطط للوصول إلى العرش. وعندما لعبا دور الأحمق في أيام شبابهما تُرِكا وشأنهما. وعندما حان الوقت لتوجيه الضربة والتصرف بقوة وحسم، فقد فاجآ الجميع وهم غافلون.

إن الذكاء هو الصفة الواضحة التي يتعيَّن تعمّد تخفيضها. ولكن لِمَ التوقف هناك؟ فالذوق والحنكة قريبان من مرتبة الذكاء على سلَّم الغرور. اجعل الناس يشعرون أنهم أكثر حنكة ودهاء مما هم عليه فتقل درجة احتراسهم وحذرهم. وكما كان آرنولد وسلاك يعرفان، فإن خلق جوّ السذاجة الكاملة يمكن أن يفعل الأعاجيب. فقد كان أولئك الممولون المزهوّون يضحكون عليهما من وراء ظهريهما، ولكن من كان صاحب الضحكة الأكثر دويّاً في آخر الأمر؟ وإذن فاجعل الناس على وجه العموم يعتقدون أنهم أذكى وأدهى منك. فسيحتفظون بك بالقرب منهم لأنك تجعلهم يشعرون برضاً أفضل عن أنفسهم، وكلما طال وجودك قربهم، زادت الفرص المتاحة لك لتخدعهم.

صورة:
الأبّوسوم. عندما يتظاهر
بالموت فإنه يمارس لعبة
التغابي. ولذا فإن كثيراً من الحيوانات
المفترسة تتركه وشأنه. فمن يمكن أن يعتقد
أن مثل هذا المخلوق القبيح الغبيّ العصبي
الضئيل يمكن أن يقدر على هذا الخداع؟

الشاهد: اعرف كيف تستفيد من الغباء. فأعقل الناس يلعب هذه الورقة أحياناً. فهناك مناسبات تتكوَّن فيها الحكمة القصوى من التظاهر بعدم المعرفة ـ يجب أن لا تكون جاهلاً، بل قادراً على التظاهر بالجهل. فليس هناك كبيرُ خيرٍ في أن يكون المرء حكيماً بين حمقى وعاقلاً وسط مجانين. إن من يتظاهر بالحمق ليس أحمق. إن أفضل طريق لكي تلقى استقبالاً حسناً هي أن تلبس جلد أغبى الوحوش.

(بلتازار غراسيان، 1601-1658)

الانقلاب

إن كشف الطبيعة الحقيقية لذكائك نادراً ما يثمر. وعليك أن تتعوَّد على تخفيض درجته عمداً طيلة الوقت. فإذا عرف الناس الحقيقة عن غير قصد ـ أي أنك في الواقع أذكى بكثير مما يدل عليه مظهرك ـ فسوف يكون إعجابهم بك لتحفظك أكثر ممّا لو جعلت ألمعيَّتك تظهر. وعند بدء صعودك إلى القمة طبعاً فإنك لا تستطيع التظاهر بغباء زائدٍ عن الحد. فقد ترغب أن تدع رؤساءك يعرفون، بطريقة خفية، أنك أذكى من المنافسة من حولك. غير أنك كلما صعدت السلَّم تعيَّن عليك أن تحاول طمس ألمعيتك إلى حدٍّ مّا.

على أن هناك وضعاً واحداً يثمر فيه قيامك بالعكس، عندما تستطيع أن تغطي خديعة مّا بإظهار الذكاء. ففي قضايا الأذكياء، كما هي الحال في معظم الأشياء، تكون المظاهر هي التي تدخل في الحساب. فإذا ظهرت كمالكٍ للسلطة والمعرفة، فإن الناس سيصدِّقون ما تقول. وهذا بدوره يمكن أن يكون مفيداً جداً في إنقاذك من ورطة أو إخراجك من مأزق.

كان بائع التحف الفنية جوزيف دوفين يحضر حفلة مسائية ذات مرة في نيويورك في منزل أحد بارونات المال. وكان قد باع ذلك البارون قبل وقت يسير لوحةً من أعمال الرسَّام والحفَّار الألماني آلبريخت ديورَرْ (1471 ـ 1528) بثمن مرتفع. وكان بين الضيوف ناقد فني فرنسي شاب

كان يبدو واسع المعرفة واثقاً بنفسه. وأرادت ابنة ملك المال أن تثير إعجاب هذا الرجل فعرضت عليه لوحة ديورَرْ التي لم تكن عُلِّقَت بعد. فدرسها الناقد فترة، ثم قال أخيراً: «أتعرفين، إنني لا أعتقد أن لوحة ديورَرْ هذه صحيحة». ثم لحق بالفتاة حالما هرعت لتخبر والدها بما قال، وأنصت بينما التفت القطب المالي قلقاً إلى دوفين بحثاً عن التطمين. فلم يزد دوفين على أن ضحك وقال: «كم هذا مسلٍّ للغاية. أتدرك أيها الفتى أن عشرين خبيراً فنياً آخرين على الأقل، هنا وفي أوروبا، قد خُدِعوا أيضاً، وقالوا إن اللوحة ليست أصيلة؟ وها أنت الآن ترتكب الغلطة نفسها». فأخافت لهجته، وطريقته في الحديث كأنه أستاذ وحجة ومرجع، الرجلَ الفرنسي، الذي اعتذر عن غلطته.

وكان دوفين يعرف أن اللوحات المزوَّرة قد أغرقت سوق الفن كأنها الطوفان، وأن كثيراً من اللوحات قد نسبت بطريقة مزيَّفة إلى الأساتذة القدامى. وقد بذل قصارى جهده لتمييز الحقيقي من المزوَّر. ولكنه في غمرة تحمسه للبيع كان كثيراً ما يبالغ في توكيد أصالة عملٍ مّا. فكل ما كان يهمّه هو أن يعتقد المشتري أنه قد اشترى لوحة لديورر، وأن دوفين نفسه قد أقنع كل شخص «بخبرته» من خلال هالة المرجعية التي كان يحيط بها نفسه، فلا يجرؤ أحد على الدنوّ منها. وهكذا، فإن من المهم أن يكون المرء قادراً على لعب دور الأستاذ عند الضرورة، وأن لا يفرض مثل هذا الموقف أبداً من أجل ذاته فحسب.

القانون

22

استخدم تكتيك الاستسلام: حوّل الضعف إلى قوة

الحكم

عندما تكون أنت الأضعف، فإياك أن تقاتل من أجل الشرف؛ واختر الاستسلام بدلاً من ذلك. فالاستسلام يعطيك فرصة لاسترداد عافيتك، وقتاً لتعذيب غالِبك وإزعاجه، وقتاً لانتظار قوَّته التي تتضاءل. فلا تعطه متعة إشباع رغبته بمقاتلتك وهزيمتك ـ استسلم أولاً. فبإدارتك للخدّ الآخر تثير خصمك وتزعزع استقراره. اجعل الاستسلام أداة للقوة.

انتهاك القانون

تحتلّ جزيرة ميلوس موقعاً استراتيجياً في قلب البحر الأبيض المتوسط. وفي العصور الكلاسيكية القديمة، كانت أثينا تسيطر على البحر وعلى المناطق الساحلية المحيطة باليونان. ولكن إسبارطة، في بيلوبونيسيا (شبه الجزيرة التي تشكل جزءاً من جنوب البرّ الإغريقي) كانت المستعمِر الأصلي لميلوس. وأثناء الحرب البيلوبونيزية رفض أهل ميلوس أن يتحالفوا مع أثينا، وظلوا على ولائهم لإسبارطة الأم. وفي سنة 416 ق .م. أرسل الأثينيون حملة ضد ميلوس. غير أنهم قبل شن هجوم سنة شامل أرسلوا وفداً لإقناع أهل ميلوس بالاستسلام وبأن يصيروا حليفاً لأثينا بدلاً من التعرض للدمار والهزيمة.

قال الموفدون: «إنكم تعلمون كما نعلم أن مستوى العدالة يعتمد على التساوي في قوة الإرغام، وأن الأقوياء في الحقيقة يعملون ما يملكون القوة والسلطة لعمله، وأن الضعفاء يقبلون ما هم مضطرون لقبوله». وعندما أجاب أهل ميلوس بأن ذلك إنكار لفكرة الإنصاف، قال لهم الأثينيون إن الذين يملكون القوة والسلطة يقررون ما هو إنصاف وما هو إجحاف. فجادل أهل ميلوس بأن هذه السلطة تعود إلى الآلهة، لا البشر. فرد عضو في الوفد الأثيني: «إن رأينا في الآلهة ومعرفتنا بالبشر تقودنا إلى الاستنتاج بأن قانون الطبيعة العام والضروري هو أن يحكم المرء ما يستطيع».

شجرتا الكستناء والتين

تسلّق رجل شجرة تين، فكان يحني أغْصانها نحوه، ويقطف ثمارها الناضجة ليضعها في فمه ليسحقها ويقضمها بأسنانه القاسية. وعندما رأت ذلك شجرة الكستناء هزّت أغصانها، وقالت بِخَشْخشةٍ مضطَربة:

«أيتها التينة! إن حماية الطبيعة لك أقل بكثير من حمايتها لي. انظري كيف تضع ثماري داخل لباس محكم وثيق، فهي تلفّها أولاً بأغلفة طريّة، فوقها قشرة قاسية ولكن بطانتها طريّة. ولم تكتفِ الطبيعةُ بكل هذه العناية، فأعطتنا هذه النتوءات الحادّة المستدقّة المتلاصقة، بحيث لا تستطيع يد الإنسان أن تؤذينا».

وعندئذ شرعت شجرة التّين تضحك، وبعد الضحك قالت: «إنك تعرفين جيّدًا أنّ الإنسان عنده من البراعة والإبداع ما يمكنه من حرمانك –حتى أنتِ– من صغارك. ولكنه في حالتك سوف يفعل ذلك بالعصيّ

ولم يتزحزح أهل ميلوس. وأصروا أن إسبارطة سوف تأتي للدفاع عنهم. فجابههم الأثينيون بأن الإسبارطيين شعب محافظ وعملي، وأنهم لن يساعدوا ميلوس، لأنه ليسي لديهم ما يكسبونه من ذلك، بل لديهم الكثير مما سيخسرونه.

وأخيراً بدأ أهل ميلوس يتحدثون عن الشرف، وعن مبدأ مقاومة القوة الوحشية. فقال الأثينيون: «لا تضللوا أنفسكم بالشعور الزائف بالشرف. فالشرف كثيراً ما يؤدي بالناس إلى الدمار عندما يواجههم خطر واضح يؤثر بطريقة مّا في عزة نفوسهم. فليس هناك من عار في الاستسلام لأعظم مدينة في بلاد الإغريق وهي تعرض عليكم مثل هذه الشروط المعقولة». وانتهت المداولة. وناقش أهل ميلوس الأمر فيما بينهم، وقرروا أن يثقوا بعون إسبارطة، وبإرادة الآلهة، وبقضيتهم المحقّة. فرفضوا عرض الأثينيين بطريقة مهذبة.

وبعد بضعة أيام هاجم الأثينيون ميلوس. فقاتلهم أهلها بشرف، حتى بدون الإسبارطيين، الذين لم يأتوا لإنقاذهم. وبعد عدة محاولات، استطاع الأثينيون أن يطوقوا مدينتهم الرئيسية ويحاصروها، فاستسلمت ميلوس في آخر الأمر. ولم يضع الأثينيون وقتاً. فقتلوا كل الرجال الذين استطاعوا أسرهم ممن هم في سن العسكرية، وباعوا النساء والأطفال كعبيد، وأسكنوا مستوطنيهم في الجزيرة التي لم ينج من أهلها سوى حفنة قليلة.

التفسير

كان الأثينيون واحداً من أكثر الشعوب عمليةً في التاريخ. وقد قدموا أكبر ما استطاعوا من حجج عملية في جدلهم مع أهل ميلوس. عندما تكون أنت الطرف الأضعف فليس هناك ما يمكن كسبه من خوض قتال لا طائل من ورائه. فلا أحد يأتي لنجدة الضعيف ــ لأن المنجدين لن يزيدوا على تعريض أنفسهم للخطر. فالضعفاء وحيدون وعليهم أن

والحجارة. وعندما تتساقط ثمارك فسوف يدوسها بقدميه أو يضربها بالحجارة بحيث يبرز لبابها من الدروع مهشمة ومشوّهة. أما أنا فتلمسني يداه بعناية، وليس –مثلك– بخشونةٍ أبدًا».

ليوناردو دافنشي

1519–1452

يستسلموا. فالقتال لن يكسبك شيئاً سوى الاستشهاد، وفي هذه العملية يموت كثير من الناس الذين لا يؤمنون بقضيتك.

ليس الضعف ذنباً، بل يمكن أن يصبح قوة إذا تعلمت كيف تشغّله بشكل صحيح. فلو استسلم أهل ميلوس في المقام الأول، لاستطاعوا أن يجابهوا الأثينيين بالتخريب بطرق ذكية خفية، أو لحصلوا على ما يستطيعون انتزاعه من التحالف، ثم تخلوا عنه عندما يضعف الأثينيون، الذين ضعفوا فعلاً بعد عدة أعوام من تلك الواقعة. فالحظوظ تتغير. والأقوياء كثيراً ما يسقطون. فالاستسلام يخفي قوة عظيمة: فهدهدة العدو حتى يستنيم للرضا عن نفسه، تعطيك فرصة لتعويض الخسارة واستعادة العافية، ووقتاً للتقويض، ووقتاً للانتقام. فلا تهدر ذلك الوقت بالتضحية به لأجل الشرف في معركة لا تستطيع أن تكسبها.

إن الناس الضعفاء لا يستسلمون عندما ينبغي عليهم أن يفعلوا.

(الكردينال دي ريتز، 1613-1679)

كان فولتير يعيش في المنفى في لندن في وقت كانت فيه العواطف المعادية للفرنسيين في أوجها. وذات يوم عندما كان يسير في الشوارع رأى نفسه محاطاً بحشد غاضب من الناس الذين راحوا يصرخون: «اشنقوه! اشنقوا هذا الفرنسي!» فخاطبهم فولتير بهدوء بهذه الكلمات:

«يا أبناء إنكلترا! إنكم ترغبون في قتلي لأنني فرنسي. ألا يكفيني عقوبةً أنني لم أولد إنكليزيًا؟» فهتف المتجمهرون لكلماته المتملقة، ورافقوه بسلام إلى مكان سكناه.

كتاب الحكايات البَنّي الصغير

تحرير: كليفتون فاديمان، 1985

مراعاة القانون

في وقتٍ مّا خلال عشرينات القرن العشرين، اقتنع الكاتب الألماني برتولت بريخت بقضية الشيوعية. ومنذ ذلك الحين بدأت مسرحياته ومقالاته، وأشعاره تعكس الحماس الثوري. وأخذ بصورة عامة يحاول أن يجعل بياناته العقائدية واضحة بقدر المستطاع. وعندما وصل هتلر إلى السلطة في ألمانيا، صار بريخت وزملاؤه الشيوعيون مستهدفين. وكان له أصدقاء كثيرون في الولايات المتحدة ــ أميركيون يتعاطفون مع معتقداته، ومثقفون ألمان كانوا قد هربوا من هتلر. وبناء على ذلك، هاجر بريخت إلى الولايات المتحدة سنة 1941، واختار أن يستقر في لوس آنجيلوس، حيث أمل أن يكسب عيشه من العمل في تجارة الأفلام.

وعلى امتداد السنوات القليلة التالية أخذ بريخت يكتب نصوصاً

للروايات السينمائية ذات ميول معادية للرأسمالية بحدّة. فلم يحصل على نجاح يذكر في هوليود؛ وهكذا قرر في سنة 1947، بعد أن كانت الحرب قد انتهت، أن يعود إلى أوروبا. غير أن السنة نفسها شهدت لجنة النشاطات المعادية لأميركا التي شكلها الكونغرس الأميركي وهي تبدأ تحقيقها في التغلغل الشيوعي المفترض في هوليود. فبدأت تجمع معلومات عن بريخت، الذي كان قد اعتنق الماركسية بشكل مكشوف. وفي 19 أيلول/ سبتمبر 1947، قبل شهر فقط من تاريخ مغادرة الولايات المتحدة كما كان يخطط، تلقى دعوة للمثول أمام اللجنة. وقد دعي معه أيضاً عدد من الكتّاب والمنتجين والمخرجين، ممن عرفوا كمجموعة باسم الهوليوديين التسعة عشر.

وقبل الذهاب إلى واشنطن، اجتمع الهوليوديون التسعة عشر كي يقرروا خطة عمل. فقرروا اتباع نهج المواجهة. فبدلاً من الإجابة عن الأسئلة حول عضويتهم في الحزب الشيوعي، سيقرأون تصريحاتٍ معدة سلفاً تتحدى سلطة اللجنة وتجادل في كون أنشطتها غير دستورية. فحتى لو كانت هذه الاستراتيجية تعني السجن، فإنها ستكسب شهرة وشعبية لقضيتهم.

فاختلف معهم بريخت، وسألهم: ما الفائدة من لعب دور الشهيد وكسب قليل من العطف الشعبي العلني إذا كانوا سيخسرون في هذه العملية عرض مسرحياتهم، وبيع نصوصهم سنوات طويلة؟ كان يشعر أنهم أذكى بالتأكيد من أعضاء اللجنة. فلماذا ينزلون بأنفسهم إلى مستوى خصومهم بالمجادلة معهم؟ فلماذا لا يبزّون اللجنة في المكر بالتظاهر بالاستسلام لها بينما هم يسخرون منها بطريقة ذكيّة خفيّة؟ وأنصت الهوليوديون التسعة عشر لبريخت بأدب ثم قرروا التمسك بخطتهم، وتركوه يسلك نهجه وحده.

وأخيراً استدعت اللجنة بريخت في 30 تشرين الأول/ أكتوبر. وكان أعضاؤها يتوقعون منه أن يفعل ما فعله الآخرون من مجموعة

الهوليوديين التسعة عشر الذين أدلوا بشهاداتهم أمام اللجنة: أي أن يجادل، ويرفض الإجابة على الأسئلة، ويتحدى حقّ الجمعية في عقد جلساتها، بل يصرخ ويقذف بالشتائم والإهانات. غير أن بريخت، لدهشتهم الشديدة، كان صورة مثالية للانسجام والطيبة. إذ كان يرتدي بذلة (وهذا شيء نادراً ما كان يفعله)، ويدخن سيجاراً (فقد سمع بأن رئيس اللجنة كان مدخن سيجار متحمساً)، فأجاب على أسئلتهم بأدب، وبدا بصورة عامة أنه يحترم سلطتهم.

وعلى عكس الشهود الآخرين، أجاب بريخت عن سؤالهم عن كونه منتسباً للحزب الشيوعي. فقال إنه ليس عضواً، وتصادف أن كان ذلك صحيحاً. فسأله أحد أعضاء اللجنة: «أصحيح أنك كتبتَ عدداً من المسرحيات الثورية؟» وكان بريخت قد كتب مسرحيات كثيرة ذات رسائل شيوعية مكشوفة. ولكنه أجاب: «لقد كتبت عدداً من القصائد والأغاني والمسرحيات في النضال ضد هتلر، ولذلك يمكن طبعاً أن تُعْتَبَرَ ثورية، لأنني كنت بالطبع مؤيداً لإسقاط حكومته». فلم تواجه هذه التصريحات أي تحدٍّ أو اعتراض.

وكانت إنكليزية بريخت أكثر من كافية. ولكنه استخدم مترجماً طوال شهادته، فأتاحت له هذه الخطة أن يتلاعب باللغة بصورة ذكية معقدة. وعندما عثر أعضاء اللجنة على سطور ذات ميول شيوعية في النسخ الإنكليزية من أشعاره، تلا تلك السطور بالألمانية للمترجم، وعند ترجمتها كانت تبدو ـ بطريقةٍ مّا ـ بريئة لا ضير فيها. وعند إحدى النقاط قرأ عضوٌ في اللجنة واحدة من قصائد بريخت الثورية بصوتٍ عال بالإنكليزية، وسأله عما إذا كان قد كتبها، فأجاب: «كلاّ. لقد كتبت قصيدة ألمانية، وهي شديدة الاختلاف عن هذه». وقد حيّرتْ أجوبتُهُ المتهربةُ أعضاء اللجنة وأربكتهم. ولكن أدبه ولطفه واستسلامه لسلطتهم جعل من المستحيل عليهم أن يغضبوا منه.

وبعد ساعة فقط من الاستجواب، قرر أعضاء اللجنة أنهم سمعوا

ما فيه الكفاية، فقال له رئيسها: «أشكرك شكراً جزيلاً. إنك مَثَلٌ جيد للشهود [الآخرين]». ولم يكتفِ الأعضاء بتركه طليقاً، بل عرضوا عليه أية مساعدة إن وقعت له أية مشاكل مع مسؤولي الهجرة الذين قد يعتقلونه لأسباب خاصة بهم. وفي اليوم التالي غادر بريخت الولايات المتحدة فلم يعد إليها أبداً.

التفسير

إن نهج المجابهة الذي اتبعه الهوليوديون التسعة عشر قد أكسبهم كثيراً من العطف، وبعد سنوات كسبوا إثبات براءتهم لدى الرأي العام. غير أنهم قد وُضِعوا أيضاً في القائمة السوداء، وخسروا سنوات ثمينة من وقت العمل المربح. ومن جهة أخرى فإن بريخت قد عبّر عن اشمئزازه من اللجنة بصورة غير مباشرة أكثر. فلم يغير معتقداته، ولم يعرّض قيمه للخطر ولم يساوم عليها. وبدلاً من ذلك فقد احتفظ باليد العليا أثناء شهادته القصيرة عن طريق التظاهر بالاستسلام بينما ظل يتحرك في دوائر متعرجة حول اللجنة بإجاباته الغامضة، بل إن أكاذيبه السافرة قد مرّت بلا نزاع ولا تحدٍّ، لأنها كانت مغلفة بالأحاجي الغامضة والتلاعب بالكلمات. وفي آخر الأمر، احتفظ بالحرية لمتابعة كتابته الثورية (بدلاً من التعرض للمعاناة أو السجن أو الاعتقال في الولايات المتحدة)، حتى مع سخريته الذكية من اللجنة وسلطتها بطاعته الكاذبة لها.

ليبق ماثلاً في ذهنك: إن الناس الذين يحاولون أن يُظْهِروا سلطتهم بشكل استعراضي يمكن أن تخدعهم بسهولةٍ خطةُ الاستسلام. ذلك أن إشارتك الظاهرية بالخضوع لهم تجعلهم يشعرون بأهميتهم. فيرضون باحترامك لهم؛ وعندئذ يصيرون أهدافاً أسهل لهجوم معاكس فيما بعد، أو لنوع السخرية غير المباشرة التي استعملها بريخت. وزّع سلطتك على الزمن، فلا تضحِّ بالقدرة على المناورة في المدى البعيد في سبيل أمجاد الاستشهاد التي لا تعيش طويلاً.

عندما يمر السيد العظيم فإن الفلاح العاقل ينحني له بعمق، ويضرط عليه بصمت.

(مَثَل حبشي)

مفاتيح السلطة

إن ما يوقعنا في المتاعب في ميدان السلطة غالباً ما يكون هو رد فعلنا المفرد على تحركات أعدائنا ومنافسينا. ذلك أن رد الفعل المفرط يخلق مشاكل كان بوسعنا أن نتفاداها لو أننا تصرفنا بعقلانية أكثر. كما أنه يترك تأثيراً مرتداً علينا بصورة لا تنتهي، إذ أن العدو بدوره يتصرف برد فعل مفرط كذلك، يشبه كثيراً ما فعله الأثينيون بأهل ميلوس. فأول ما تمليه علينا غريزتنا دائماً هو رد الفعل، كي نقابل العدوان بنوع آخر من العدوان. ولكن عندما يدفعك شخص مّا في المرة القادمة، وتجد نفسك قد بدأتَ برد فعل، حاول ما يلي: لا تقاوم، ولا تردّ بالقتال، بل استسلم، وانحنِ، وأدر له الخد الآخر. وستجد بأن ذلك غالباً ما يحيّد سلوك الآخرين ــ فقد كانوا يتوقعون ــ بل يريدون ــ منك رد فعل بالقوة. وهكذا فإنهم يؤخذون على حين غِرَّة، فيحيرهم انعدام مقاومتك لهم. والواقع أنك بالاستسلام تسيطر على الموقف، لأن استسلامك جزء من خطة أكبر لهدهدتهم كي يعتقدوا بأنهم قد هزموك.

وهذا هو جوهر خطة الاستسلام التكتيكية: تبقى على صلابتك من الداخل، ولكنك من الناحية الخارجية تنحني. وبذلك تحرم خصومك من سبب يدعوهم للغضب، فيشعرون بالحيرة على الأغلب بدلاً من ذلك. وليس من المحتمل أن يكون رد فعلهم مزيداً من العنف يتطلب بدوره ردَّ فعل منك. وبدلاً من ذلك يتاح لك وقتٌ ومجال لتخطيط تحركاتك المضادة التي سَتُسقطهم. ذلك أن تكتيك الاستسلام هو السلاح الأمضى في المعركة التي يخوضها الذكي ضد الوحشيّ والعدوانيّ. وهو يتطلب سيطرة على النفس بالتأكيد: أما أولئك الذين يستسلمون بشكل حقيقي فعلي (وليس ظاهريّاً فقط) فإنهم يتخلّون عن

حريتهم، وقد يسحقهم عار هزيمتهم المذلّة. إن عليك أن تتذكر أنك تبدو مستسلماً **في الظاهر فقط**، كالحيوان الذي يتماوت لكي ينقذ جلده.

وقد رأينا كيف أنه يمكن أن يكون الاستسلام خيراً من القتال. فعند مواجهة خصم أقوى وهزيمة مؤكدة فإن الاستسلام غالباً ما يكون أفضل من الهرب أيضاً. ذلك أن الهرب قد ينقذك مؤقتاً، ولكن المعتدي سيلحق بك في آخر الأمر. أما إذا استسلمت بدلاً من ذلك، فستبقى لك فرصة للالتفاف حول عدوك وعضّه بأنيابك عن كثب ومن مكان قريب.

في سنة 473 ق.م. في الصين القديمة، تلقى غوجيان، ملك يو، هزيمة رهيبة على يد حاكم وُو في معركة فوجِيَاوْ. وأراد غوجيان أن يهرب. ولكن كان لديه مستشار طلب منه أن يستسلم ويضع نفسه في خدمة حاكم وُو. ومن هذا الموقع يستطيع أن يدرس الرجل ويخطط انتقامه منه. فقرر غوجيان أن يتبع هذه النصيحة. فأعطى ثروته كلها لذلك الحاكم، وذهب ليعمل في اصطبلات الغازي كواحدٍ من أقل الخدم شأناً. وأذلّ نفسه على مدى ثلاثة أعوام لذلك الحاكم، الذي اقتنع بولائه في آخر الأمر، فسمح له بالعودة إلى وطنه. غير أن غوجيان كان من الناحية الداخلية قد أمضى تلك الأعوام الثلاثة في جمع المعلومات والتخطيط للانتقام. وعندما أُصيبت وُو بجفاف رهيب، وأضعفتها اضطرابات داخلية، حشد غوجيان جيشاً وغزاها فانتصر بسهولة. تلك هي القوة الكامنة وراء الاستسلام: إنه يعطيك الوقت والمرونة لتخطيط ضربة معاكسة مدمّرة. ولو هرب غوجيان لخسر هذه الفرصة.

عندما بدأت التجارة الخارجية تهدد الاستقلال الياباني في منتصف القرن التاسع عشر، تداول اليابانيون في كيفية دحر الأجانب. وكتب الوزير هوتّا ماسايوشي مذكرة في سنة 1857، أثرت على السياسة اليابانية سنوات طويلة بعد ذلك: «ولذا فإنني مقتنع بأن سياسينا ينبغي أن تقوم على عقد تحالفات ودية، وإرسال السفن إلى بلدان أجنبية في كل مكان، وإجراء التجارة، وتقليد الأجانب في أفضل نواحيهم، وبذلك نصلح

عيوبنا ونواقصنا، ونرعى قوتنا الوطنية، ونستكمل تسلحينا، ثم نقوم تدريجياً بإخضاع الأجانب لتأثيرنا حتى تعرف جميع بلدان العالم في آخر الأمر بركات الهدوء الكامل ويتم الاعتراف بهيمنتنا في جميع أنحاء العالم». فكان هذا تطبيقاً ألمعياً للقانون: استخدم الاستسلام لكسب الوصول إلى عدوك. وتعلم أساليبه. وتقرب منه بالتزلف البطيء، وامتثل لعاداته وتقاليده من الخارج، ولكن حافظ من الداخل على ثقافتك الخاصة، وسوف تبرز منتصراً في نهاية المطاف. لأنه في الوقت الذي يعتبرك فيه ضعيفاً ومتخلفاً، فلا يتخذ أية احتياطات ضدك، تستخدم أنت الوقت للحاق به والتفوق عليه. وكثيراً ما تكون هذه الطريقة الناعمة اللطيفة النفيذة في الغزو المتسلل هي الأفضل، لأن العدو ليس لديه ما يرد عليه، أو يتهيأ له، أو يقاومه. ولو أن اليابان قاومت تغلغل التأثير الغربي بالقوة، لكان الاحتمال الأكبر أن تتعرض لغزو مدمر يغير ثقافتها تغييراً دائماً.

ويمكن أن يقدم لك الاستسلام أيضاً طريقة للسخرية من أعدائك وجعل قوتهم تنقلب ضدهم.. كما حدث لصالح بريخت. فقصة ميلان كونديرا **النكتة** المبنية على تجارب مؤلفها في معسكر عقابيّ في تشيكوسلوفاكيا، تروي كيف نظم حراس السجن سباق تناوب تبارى فيه الحراس ضد السجناء. فكانت هذه بالنسبة للحراس فرصة يستعرضون فيها تفوّقهم البدنيّ. وعرف السجناء أنهم من المتوقع أن يخسروا. فبذلوا جهوداً كبرى لتحقيق ذلك، متظاهرين باستخدام طاقة قصوى بجهدٍ مبالغ فيه بينما هم لا يكادون يتحركون، فيركضون بضع ياردات ثم ينهارون، ويعرجون، ويهرولون ببطء شديد، بينما راح الحراس يتراكضون سابقين قبلهم بسرعة تامة. وعن طريق المشاركة في السباق، وخسارته لبّوا طلبات الحراس بطاعة. ولكن «إفراطهم في هذه الطاعة» جعل ذلك الحدث موضع سخرية إلى درجة تحطيمه. فكانت الطاعة المفرطة ـ الاستسلام ـ هنا طريقة لإبراز التفوق بصورة معاكسة. أما المقاومة

فكانت ستورط السجناء في دائرة من العنف. وتهبط بهم إلى مستوى الحراس. غير أن **الإفراط في الطاعة** جعل الحراس سخفاء، ومع ذلك فلم يكن باستطاعتهم أن يعاقبوا السجناء معاقبة محقّة، فهم لم يفعلوا سوى ما طلبه الحراس.

فالسلطة دائماً في حالة مرنة من التمدد والتقلص، إذ أن اللعبة متميعة بطبيعتها، وهي مجال للصراع المستمر. فذوو السلطة يجدون أنفسهم بشكل دائم تقريباً متجهين إلى أسفل الأرجوحة في آخر الأمر. فإن وجدت نفسك معرضاً للضعف مؤقتاً، فإن تكتيك الاستسلام هو أفضل شيء لرفع نفسك مرة أخرى ـ إذْ أنه يخفي طموحك؛ ويعلمك الصبر وضبط النفس، وهما مهارتان أساسيتان في اللعبة؛ والاستسلام يضعك في أفضل مركز ممكن للاستفادة من الانزلاق المفاجيء لمن هزمك وظلمك. أما إن هربت أو قاتلت فإنك لا تستطيع الفوز في المدى البعيد. ولكن إذا استسلمت فإنك ستخرج ظافراً بصورة تكاد تكون دائمة.

صورة: شجرة
البلوط. إن شجرة
البلوط التي تقاوم
الريح تفقد أغصانها
واحداً بعد الآخر.
وعندما لا يبقى شيء
يحميها، ينكسر
الجذع في آخر الأمر.
أمّا شجرة البلوط
التي تنحني فإنها تعيش
أكثر، وينمو جذعها بشكل أعرض،
وتكون جذورها أعمق وأعند.

الشاهد: سمعتم أنه قيل عين بعين وسنٌّ بسنّ، وأما أنا فاقول لكم لا تقاوموا الشر: بل من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخَّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. *(السيد المسيح، في إنجيل متى، 5:38-41)*

الانقلاب

إن القصد من الاستسلام هو إنقاذ جلدك حتى تاريخ لاحق، عندما تقدر على توكيد ذاتك وفرض نفسك ثانية. فالمرء يستسلم كي يتجنَّب الاستشهاد بالضبط. ولكن هناك أوقاتاً لا يلين فيها العدو، ويبدو الاستشهاد هو المخرج الوحيد. وبالإضافة إلى ذلك، فإنك إن كنت مستعداً للموت فإن هناك آخرين سيكسبون قوة وإلهاماً من المثل الذي تضربه لهم.

ومع ذلك فإن الاستشهاد، عكس الاستسلام خطة غير مضبوطة ومليئة بالفوضى، وتعادل في عنفها العدوان الذي تقاتله. وفي مقابل كل شهيد شهير هناك ألوف لم يلهموا ديناً ولا ثورة، بحيث أن الاستشهاد إن كان يعطي قوة معيَّنة أحياناً، فإنه يفعل ذلك بطريقة يصعب التنبؤ بها. وأهم من ذلك أنك لن تكون موجوداً لتستمتع بالقوة، أيّاً كان نوعها. وهناك أخيراً شيء أناني ومتعجرف في الشهداء. فكأنهم يشعرون بأن أتباعهم أقل أهمية من مجدهم الشخصيّ الخاص بهم.

عندما تهجرك القوة وتتخلَّى عنك، فإن أفضل شيء هو أن تتجاهل الانقلاب العاكس لهذا القانون. اترك الاستشهاد وشأنه: إذْ أن الرقاص سوف يتأرجح عائداً إليك في نهاية الأمر، ويتعيَّن عليك أن تبقى حيّاً لتراه وهو قادم في اتجاهك.

القانون

23

ركّز قواك

الحكم

حافظ على قواك وطاقاتك بإبقائها مركّزة عند أقوى نقاطها. فإنك تكسب بالعثور على منجم غني وتعدينه في العمق أكثر مما تكسب من التفلُّت من منجم ضحل إلى آخر ـ فالكثافة تهزم الاتساع في كل مرة. وعند البحث عن مصادر قوى لترفعك، اعثر على الراعي الهام الوحيد، على البقرة السمينة التي ستعطيك حليباً لوقت طويل في المستقبل.

انتهاك القانون

في الصين في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، بدأت مملكة وُو حرباً مع المقاطعات الشمالية المجاورة التابعة للمملكة الوسطى. كانت وُو قوة متنامية، ولكن كان ينقصها تاريخ المملكة الوسطى وحضارتها العظيمان، اللذان ظلاً مركز الثقافة الصينية قروناً طويلة. وشعر ملك وُو أنه عند دحره المملكة الوسطى، سيرفع مكانته على الفور.

وبدأت الحرب بكثير من الضجيج الدعائي وبانتصارات عديدة، ولكنها سرعان ما جمدت وركدت، وكان كل انتصار على جبهة يترك جيوش وُو مكشوفةً للأخطار على جبهة أخرى. وقام مستشار الملك ووزيره الرئيسي، وُو تزو ــ هْسْيُو، بتحذيره من أن دولة يُويِهْ الهمجية إلى الجنوب قد بدأت تصعِّد نظرها وتصوِّبه في مشاكل وُو، ولديها خطط للهجوم. فلم يزد الملك على أن ضحك من مثل هذه المخاوف ــ فقد بقي انتصار واحد كبير وتسقط المملكة الوسطى في قبضته.

وفي سنة 490 ق.م. أرسل وُو تْزُو ــ هْسْيُو ولده إلى مكان بعيد آمن في مملكة شْئِي. وبعمله هذا أرسل إشارة إلى الملك بأنه غير موافق على الحرب، وبأنه يعتقد أن طموح الملك الأناني كان يودي بوُو إلى الخراب. وشعر الملك أن في ذلك خيانة. فوجَّه ضربة عنيفة إلى وزيره، فاتهمه بعدم الولاء. وفي نوبة غضب، أمره بقتل نفسه. وأطاع وُو تْزُو ــ هْسْيُو ملكه. ولكنه قبل أن يغرس سكيناً في صدره، صرخ: «اقتلع عينيَّ

الوزّة والحصان

كانت وزّةٌ تنقر في العشب، فظنّت نفسها تعرّضت للإهانة من حصان كان يرعى بجوارها. فخاطبته بلهجة فيها حسيس: «إنني بالتأكيد أنبل وأكمل خلقًا منك؛ لأن كل مدى قدراتك وطاقاتك محصور في بيئةٍ واحدة. فأنا أستطيع أن أمشي على الأرض جيّدًا مثلك. وبالإضافة إلى ذلك فإن لي جناحين أستطيع أن أرتفع بهما في الهواء، وأستطيع عندما أريد أن أرفّه عن نفسي في البرك والبحيرات وأنعش نفسي بمياهها الباردة. إنني أقتّع بطاقاتٍ مختلفة كالتي تتمتع بها الطيور، والأسماك، وذوات الأربع». فشخر الحصان لها بشيء من الاحتقار وقال ردًا عليها:

«صحيح أنك تسكنين في ثلاث بيئات. ولكنك لا تبرزين بشكل متميّز في أيٍّ منها. صحيح أنك تطيرين، ولكن طيرانك ثقيل وأخرق وبلا رشاقة، فلا يحق لكِ أن تضعي نفسكِ على مستوى القبرة أو السنونو. وتستطيعين أن تسبحي على سطح المياه، ولكنّك لا تستطيعين أن تعيشي فيها

أيها الملك، والصقهما على بوابة وُو، كي أرى الدخول الظافر لدولة يُوِيهْ».

وكما تنبأ وُو تْزو ـ هْسْيو، فقد مرَّ جيش يُوِيه بعد بضع سنين من تحت بوابة وُو. وبينما طوَّق المتوحشون القصر، تذكَّر الملك آخر كلمات وزيره ـ وشعر بعيني الرجل الميت المقلوعتين تحدِّقان إلى عاره. فلم يستطع أن يتحمَّل هذا الخزي، فقتل نفسه «مغطياً وجهه كي لا يلتقي بنظرة اللوم في عيني وزيره في العالم الآخر».

التفسير

إن قصة وُو أمثولة لكل الامبراطوريات التي حاق بها الدمار بتمدّدها أكثر من اللازم. فمثل هذه الإمبراطوريات تسكرها خمر النجاح ومرض الطموح فتتوسَّع إلى أبعاد بشعة غير متناسبة، فيحيق بها خراب يكون كلياً. وهذا ما حدث لأثينا القديمة، التي كانت تتشهى جزيرة صقلية البعيدة النائية، فانتهى بها الأمر إلى خسارة إمبراطوريتها. وقد مدَّد الرومان حدود إمبراطوريتهم لتشمل أقاليم شاسعة؛ وبذلك زادوا تعريض أنفسهم للأخطار، وفرص قيام قبيلة متوحشة أخرى بغزوهم. فأدَّى توسعهم غير المفيد إلى طيّ إمبراطوريتهم في مجاهل النسيان.

وبالنسبة للصينيين، فإن مصير مملكة وُو، يقدّم درساً أولياً لما يحدث لك عندما تشتت قواك على جبهات عديدة، فيجعلك الكسب الآنيّ العاجل تغفل ببصرك عن الأخطار البعيدة. ويقول صُنْ ـ تزو: «إذا لم تكن في خطر، فلا تقاتل». ويكاد هذا القانون يكون جسدياً، إذْ أنَّ أي شيء يُنْضَخُ أكثر من أي تناسب، سوف ينهار حتماً. فالعقل يجب أن لا يتوزع متنقلاً من هدف إلى هدف أو يلهيه النجاح من الإحساس بالقصد والانسجام. فما هو مركز، ومتجانس، ومرتبط بماضيه، يكون قوياً. أما ما هو مشتَّت، ومنقسم، ومتضخم فإنه يتعفَّن ويسقط على الأرض. وكلما زاد انتفاخه المنفوش كان سقوطه أقسى.

كالأسماك. فلا تستطيعين العثور على طعامك في تلك البيئة، ولا الانسياب بنعومة على امتداد قيعان الأمواج. وعندما تمشين، أو بالأحرى تتهادين على الأرض بأقدامك العريضة، ورقبتك الطويلة الممتدّة إلى الخارج، وتهسهسين على كل من يمرّ بك، فإنك تجلبين لنفسك احتقار كل من يراك. وأنا أعترف بأنني مخلوق لأتحرّك على الأرض فقط؛ ولكن كم هو رشيق شكلي! وما أجمل انفتال أطرافي! وما أكمل بناء جسمي كلّه! وما أعظم قوّتي! وكم هي مذهلة سرعتي! إنني أفضل أن أبقى محصورًا في بيئة واحدة أنال فيها الإعجاب، على أن أكون وزّة على الإطلاق!».

خرافات من بوكاشيو وتشوسر

الدكتور جون إيكين،

1822-1747

مراعاة القانون

كانت بدايات أسرة روتشيلد المصرفية متواضعة في الحي اليهودي المغلقة (الغيتو) في فرانكفورت بألمانيا. فكانت قوانين المدينة القاسية تجعل من المستحيل على اليهود أن يختلطوا بالناس خارج الغيتو، ولكن اليهود حوَّلوا ذلك إلى ميزة. لأنه جعلهم معتمدين على الذات، ومتحمسين للحفاظ على ثقافتهم بكل ثمن. وكان ماير آمشيل، أول روتشيلديّ يجمع ثروة من إقراض المال بالربا في أواخر القرن الثامن عشر، يفهم جيداً القوة التي تنجم عن هذا النوع من التركيز والتجانس المنسجم.

فأولاً: تحالف ماير آمشيل مع أسرة واحدة، هي أسرة الأمراء القوية لثورن وتاكسيس. وبدلاً من توسيع خدماته على نحو «منفلش»، فقد جعل نفسه الصيرفيّ الأول لهؤلاء الأمراء. وثانياً: لم يعهد بأي شيء من عملياته التجارية إلى غرباء، بل استخدم أطفاله وأقاربه اللصيقين به. وكلما زاد اتحاد الأسرة وتماسكها على أضيق نطاق، تزايدت قوتها واتسع نفوذها. وسرعان ما كان أولاد ماير آمشيل الخمسة يديرون أعماله. وعندما كان يحتضر في سنة 1812، رفض أن يسمِّي وريثاً رئيسياً له. وبدلاً من ذلك، نصَّب أولاده جميعاً لمتابعة تقاليد الأسرة، كي يظلوا متحدين، ويقاوموا أخطار الانتشار وتسلل الغرباء إلى داخلهم.

وعندما سيطر أبناء ماير آمشيل على تجارة العائلة، قرَّروا أن مفتاح الحصول على الثروة على نطاق أوسع هو تأمين موطىء قدم في تمويلات أوروبا ككل، بدلاً من البقاء مشدودين إلى أي بلد أو أمير. ومن بين الإخوة الخمسة، كان ناثان قد فتح دكاناً في لندن. وفي سنة 1813، انتقل جيمس إلى باريس. وبقي آمشيل في فرانكفورت. واستقر سولومون في ڤيينا. أما أصغرهم، كارل، فقد ذهب إلى نابولي. وبإمساك جميع مناطق النفوذ هكذا، استطاعوا أن يشدِّدوا قبضتهم على أسواق أوروبا المالية.

احذر من تشتيت قواك. وكافح لتركيزها باستمرار. إن العبقرية تعتقد أنها تستطيع أن تفعل كل ما يفعله الآخرون، ولكن من المؤكّد أنها ستندم على كل نفقةٍ أساءت الحكم في صرفها.

يوهان فون غوته

1832-1749

غير أن هذه الشبكة الواسعة الانتشار، عَرَّضت آل روتشيلد بالطبع للانكشاف أمام الخطر ذاته الذي كان أبوهم قد حذَّرهم منه، وهو خطر الانتشار، والتمدُّد، والانقسام، والتنازع. فتجنَّبوا هذا الخطر. ورسَّخوا أنفسهم كأكبر قوة في عالم المال والسياسة في أوروبا، باللجوء مرة أخرى إلى استراتيجية الغيتو ـ أي إبعاد الغرباء، وتركيز قواهم. فأسَّس آل روتشيلد أسرع نظام للسعاة في أوروبا، مما أتاح لهم الحصول على أخبار الأحداث قبل منافسيهم جميعاً. بل لقد احتكروا المعلومات احتكاراً عملياً. وكانت اتصالاتهم ومراسلاتهم الداخلية تكتب بلغة ييديش فرانكفورت، وبشفرة لا يستطيع حلّها سوى الإخوة الخمسة. فلم تكن هناك فائدة من سرقة المعلومات منهم، لأنه لم يكن أحد سواهم يستطيع فهمها. واضطر ممولٌ حاول اختراق هذه العشيرة والتسلُّل إليها إلى الاعتراف بأنه: «حتى أذكى الصيارفة وأدهاهم لا يستطيعون شق طريقهم في متاهة آل روتشيلد المتشابكة».

وفي سنة 1824، قرَّر جيمس روتشيلد أن الوقت قد حان للزواج. فوضع ذلك الروتشيلديين أمام معضلة، لأنه كان يعني إدخال عنصر خارجي غريب إلى عشيرتهم، غريب قد يخون أسرارهم. ولذلك قرَّر جيمس أن يتزوَّج من ضمن صفوف العائلة. فاختار ابنة أخيه سولومون. فبلغت سعادة الإخوة ذروتها ـ إذْ كان هذا هو الحلّ الأمثل لمشكلات زواجهم. وصار اختيار جيمس هو السياسة المعتمدة في الأسرة. وبعد ذلك بعامين، زوَّج ناثان ابنته لابن سولومون. وفي السنوات التالية، دبَّر الإخوة الخمسة ثماني عشرة زيجة بين أولادهم وبناتهم، وكانت ست عشرة زيجة منها معقودة بين أبناء العمومة من الدرجة الأولى.

وقال أخوهم سولومون: «نحن نشبه آلية الساعة. كل قطعة فيها أساسية». وكما هي الحال في الساعة، كان كل جزء من أعمالهم التجارية يتحرَّك بالانسجام مع كل الأجزاء الأخرى. وكانت عمليات التشغيل الداخلية خفية عن العالم الخارجي الذي لم يكن يرى إلاَّ

حركات عقارب الساعة. وبينما تعرَّضت الأسر القوية الأخرى لعمليات هبوط وتدهور لا رجعة فيها ولا يقظة منها خلال النصف الأول المضطرب الجيَّاش من القرن التاسع عشر، فقد استطاعت أسرة روتشيلد المنغلقة على نفسها بشكل ضيِّق ومحكم أن تحافظ على ثروتها التي لم يسبق لها مثيل، بل وأن توسِّع هذه الثروة.

التفسير

لقد ولد الروتشيلديون في عصر غريب. فقد جاؤوا من مكان لم يتغيَّر طيلة قرون. ولكنهم عاشوا في زمن ولدت فيه الثورة الصناعية، والثورة الفرنسية، وسلسلة لا تنتهي من الاضطرابات والتقلبات. فأبقى الروتشيلديون ماضيهم حيّاً. وقاوموا أنماط التبعثر في عصرهم. ولذلك فإنهم رمز لقانون التركيز.

ولا أحد يمثل ذلك خيراً من جيمس روتشيلد، الولد الذي استقر في باريس. ففي حياته شهد اندحار نابوليون، وإعادة ملكية آل بوربون، وملكية أورليانز البرجوازية الرأسمالية، والعودة إلى النظام الجمهوري، وأخيراً تتويج نابليون الثالث إمبراطوراً. وقد تغيَّرت الأساليب والأزياء والطرائق الفرنسية بخطوات شديدة التسارع خلال هذا الجيشان كله. فقام جيمس بتوجيه أسرته وكأن الغيتو موجود في داخلها، دون أن يبدو عليه أنه من بقايا الماضي الغابر. فلم تستطع الأسرة أن تنتعش وتزدهر وسط هذه الفوضى إلاَّ بإبقائها مشدودة إلى الماضي بهذه الطريقة المحكمة. فكان التركيز هو أساس قوة آل روتشيلد، وثروتهم، واستقرارهم.

> إن أفضل استراتيجية على الدوام هي أن يكون المرء قوياً جداً؛ بصورة عامة أولاً، ثم عند النقطة الحاسمة... ليست هناك استراتيجية أعلى ولا أبسط للمرء من إبقاء قواه مركَّزة... وباختصار، فإن المبدأ الأول هو: تصرُّف بمنتهى التركيز.
>
> *(كتاب: حول الحرب، تأليف: كارل فون كلاوزفيتز، 1780-1831)*

مفاتيح السلطة

إن العالم مبتلى بانتشار الانقسام فيه أكثر وأكثر ـ فضمن كل بلد، هناك جماعات سياسية، وأسر، وحتى أفراد. فنحن جميعاً في حالة تشتُّت كلِّي، وانتشار متوزع، ولا نكاد نقدر على إبقاء أذهاننا مركَّزة في اتجاه واحد قبل أن يتجاذبنا ألف اتجاه آخر. فمستوى الصراع في العالم الحديث أعلى من ذي قبل، وقد أدخلناه في صميم حياتنا.

والحل يكمن في شكلٍ من أشكال التراجع إلى داخل أنفسنا، إلى الماضي، وإلى أشكال من التركيز في الفكر وفي العمل. وكما كتب شوبنهاور: «العقل حجم من التركيز والكثافة، وليس حجماً من الاتساع والامتداد». وكان نابليون يعرف قيمة تركيز القوى ضد أضعف نقطة للعدو ـ إذْ كان ذلك سرّ نجاحه في ميدان القتال. ولكن قوة إرادته وعقله كانت مقولبة بشكل مماثل حول هذه الفكرة. فوضع هدف واحد في الذهن، والتركيز الكلي على هذا الهدف، واستخدام هذه المؤهلات ضد الناس الأقل تركيزاً، الناس الذين هم في حالة تشتُّت ـ فمثل هذا السهم يصيب هدفه في كل مرة ويتغلَّب على العدو.

كان كازانوفا يعزو نجاحه في الحياة إلى قدرته على التركيز على هدف واحد، والضغط عليه حتى يتهاوى. كانت قدرته على تكريس نفسه تكريساً كاملاً للنساء اللواتي يرغب فيهن هي التي جعلته شديد الإغواء. فطوال الأسابيع أو الشهور التي كانت واحدة من تلك النساء تعيشها في فلكه، لم يكن يفكِّر في غيرها. وعندما كان مسجوناً في «القنوات» الغدَّارة في قصر الدوج في البندقية، وهو سجن لم يهرب منه أحد قطّ، ركَّز ذهنه على هدف وحيد هو الهرب، يوماً بعد يوم. بل إن تغيير الزنازين، الذي كان يعني أن شهوراً من حفر الأنفاق قد ذهبت سدى، لم يثبط عزمه. فقد أصرّ وثابر حتى أفلح في الهرب في آخر الأمر. وكتب بعد ذلك يقول: «لقد كنت أعتقد دائماً أن المرء عندما يرسخ في ذهنه أنه يريد القيام بعملٍ مّا، وعندما ينشغل بالتخطيط له

مستبعداً كل ما عداه، فلا بدّ أن ينجح مهما كانت المصاعب. ومثل هذا الرجل المصمِّم يستطيع أن يصير وزيراً أعظم أو بابا».

ركِّز على هدف وحيد، على مهمة واحدة، ثم ألحّ عليها بضرباتك حتى تخضعها. وفي عالم السلطة ستحتاج باستمرار إلى مساعدة من الآخرين، مِمَّنْ هم في العادة أقوى منك. فالأحمق يتنقل من شخص إلى آخر، معتقداً أنه سيبقى وينجو بنشر نفسه على هذا النحو. غير أن من لوازم قانون التركيز أنك توفِّر طاقة كبيرة، وتحصل على سلطة أكثر بإلحاق نفسك بمصدر ملائم وحيد من مصادر القوة. فلقد دمَّر العالِم نيقولا تيسلا حياته بالاعتقاد بأنه يحافظ على استقلاله بطريقةٍ مّا بعدم اضطراره لخدمة سيِّدٍ أوحد. بل لقد رفض عرضاً سخياً تلقاه من ج. ب. مورغان وفي خاتمة المطاف كان معنى استقلال تيسلا أنه لم يستطع الاعتماد على راعٍ واحد، بل كان مضطراً على الدوام إلى التزلف للعشرات منهم. ولَم يدرك خطأه إلاَّ في وقت متأخر من حياته.

وقد تصارع مع هذه المشكلة كل الرسامين والكتاب العظام في عصر النهضة. ولم يفعل ذلك واحدٌ أكثر من الكاتب بيترو آريتينو في القرن السادس عشر. فطوال حياته كان يعاني من ذلّ مضايقات الاضطرار إلى إرضاء هذا الأمير وذاك. وأخيراً شعر بأنه تلقى من هذه المضايقات ما فيه الكفاية، فقرَّر أن يتودَّد إلى شارلس الخامس، واعداً ذلك الإمبراطور بتكريس خدمات قلمه القوي له. وهكذا اكتشف أخيراً الحرية التي تأتي من الالتحاق بمصدر قوة وحيد. فقد عثر مايكل آنجيلو على حريته مع البابا جوليوس الثاني، وغاليليو مع آل ميديتشي. وفي آخر الأمر، فإن الراعي الأوحد يقدر ولاءك، ويصير معتمداً على خدماتك؛ وعلى المدى البعيد، فإن السيد هو الذي يخدم العبد.

وأخيراً فإن السلطة نفسها توجد دائماً بأشكال مركزة. وفي أية منظمة فإن من المحتوم أن تسيطر على الأمور مجموعة صغيرة. وهي غالباً لا تضم ذوي الألقاب. فيجب عليك أن تكتشف من المتحكِّم

بعمليات التشغيل، ومن هو المدير الحقيقي خلف الكواليس. وكما اكتشف ريشيليو في بداية صعوده إلى القمة على المسرح السياسي الفرنسي في أوائل القرن السابع عشر، لم يكن لويس الثالث عشر هو الذي يقرر الأشياء، بل أمّه. ولذلك ألحق ريشيليو نفسه بها، وطار عبر صفوف رجال الحاشية، كأنه منجنيق، طيلة المسافة صُعُداً إلى القمة.

يكفي أن تعثر على النفط مرة واحدة ـ فعندئذٍ تصبح ثروتك مضمونة طول حياتك.

صورة: السهم. إنك لا تستطيع أن تصيب هدفين بسهم واحد.
فإذا شطحت أفكارك، فإنك تخطىء قلب العدو. فيجب
أن يصير العقل والسهم واحداً. فبمثل هذا
التركيز العقلي والبدني فقط يستطيع
سهمك أن يصيب الهدف
ويخترق القلب.

الشاهد: قَدِّرْ للكثافة قيمةً أكثر من الاتساع. فالكمال في النوعية، لا في الكمية. فالاتساع وحده لا يرتفع أبداً فوق مستوى المتوسط. ومن سوء حظ ذوي الاهتمامات العامة الواسعة أنهم بينما يملكون إصبعاً في كل كعكة، فليست هناك كعكة يملكونها. فالكثافة تعطي بروزاً ووجاهة، وترتفع إلى مستوى البطولة في القضايا السامية الجليلة (بلتازار غراسيان، 1601-1658).

الانقلاب

هنالك أخطار في التركيز، ولحظات يكون فيها الانتشار هو الحركة التكتيكية الملائمة. فعند مقاتلة الوطنيين للسيطرة على الصين، كان ماوتسي ـ تونغ والشيوعيون يخوضون حرباً طويلة الأمد على جبهات عديدة، مستخدمين التخريب والكمائن أسلحة رئيسية لهم. فالانتشار كثيراً ما يكون مناسباً للطرف الأضعف؛ بل إنه في الواقع مبدأ حساس الأهمية في حرب العصابات. فعندما تقاتل جيشاً أقوى منك، فإن تركيز

قواك لا يزيد على أن يجعلك هدفاً أسهل. فالأفضل من ذلك هو أن تتلاشى في المشهد وتحبط آمال عدوك بتهربك من الحضور والتواجد أمامه في مكان واحد.

إن ربط نفسك بمصدر قوة وحيد ينطوي على خطر بارز. فإذا مات ذلك الشخص، أو غادر، أو سقط من عليائه وفَقَدَ حظوته، فإنك سوف تعاني. وهذا ما حدث لسيزار بورجيا، الذي كان يستمد قوَّته من والده البابا آلكساندر السادس. فقد كان البابا هو الذي أعطى سيزار جيوشاً يقاتل بها، وحروباً يخوضها باسمه. فعندما توفي فجأة (ربما بالسُّمِّ) صار سيزار كالميّت. فقد كسب أعداء كثيرين على مدى السنين، وخسر حماية أبيه. وإذن ففي الحالات التي تحتاج فيها إلى حماية فإنه كثيراً ما يكون من الحكمة أن تلتف وتتسلَّق حول عدة مصادر للقوة. ومثل هذه الحركة تكون حكيمة بصورة خاصة في فترات الاضطراب الكبير والتغير العنيف، أو عندما يكون أعداؤك عديدين. فكلما ازداد عدد الرعاة والسادة الذين تخدمهم تناقصت المخاطر التي تتعرَّض لها إذا خسر أحدهم سلطته. بل إن مثل هذا الانتشار يمكنك من أن تثير أحدهم ضد الآخر. وحتى لو ركزت على مصدر القوة الوحيد فإن عليك مع ذلك أن تمارس الحذر، وتتهيَّأ لليوم الذي لا يعود فيه سيدك أو حاميك موجوداً ليساعدك.

وأخيراً فإن تركيز ذهنك على هدف واحد بصورة مفرطة قد يجعلك مدعاة لملل لا يطاق، ولا سيما في الفنّ. فقد كان رسَّام عصر النهضة باولو أوتشيلّو مهووساً بهاجس زاوية النظر إلى درجة أن لوحاته تبدو مصطنعة لا حياة فيها. بينما اهتم ليوناردو دافنشي بكل شيء: الهندسة المعمارية، والرسم، والنحت، والميكانيك. وهكذا كان الانتشار مصدر قوَّته. ولكن مثل هذه العبقرية نادرة. أما نحن الباقين فإن من الأفضل لنا أن نقف إلى جانب الكثافة والتركيز ولو كنّا على خطأ.

القانون

24

العب دور رجل الحاشية الأمثل

الحكم

إن رجل الحاشية الأمثل ينتعش ويزدهر في عالم يدور فيه كل شيء حول السلطة والبراعة السياسية. فقد أتقن فن التحرك غير المباشر؛ وهو يتملَّق ويداهن، ويستسلم لمن هم أعلى منه. ويؤكد سلطته على الآخرين بأكثر الطرق مواربة وكياسة. تعلَّم أن تطبِّق قوانين رجال الحاشية ولن يكون هناك حدّ للمدى الذي يمكنك الصعود إليه في البلاط.

مجتمع البلاط

الكلبان

تصادف ذات مرة أن باربوس، الكلب المخلص الذي يخدم سيِّده بحماس، قد رأى كلبةً حضن صغيرة من معارفه ذات شعر مفتول تدعى جوجو. جالسة على وسادة وثيرة عند الشرفة، فاقترب منها بشغف، كطفل يقترب من أبيه، وكاد يغصّ باكيًا من عاطفته، وراح يهزّ ذيله تحت الشرفة ويتراقص حولها وهو يقول بلهجة فيها انتحاب: «ما نوع الحياة التي تعيشينها يا جوجوتكا منذ أن أدخلك السيد إلى قصره؟ لا شك أنك تتذكّرين كيف كنّا نعاني الجوع معًا في الساحة. فما هو نوع خدمتك الحالية؟» فأجابت جوجوتكا: «إنني أرتكب خطيئة لو تذمّرت من حظي السعيد. فسيِّدي لا يكاد يشبع منّي. وأنا أعيش في وسط الثراء والوفرة، وآكل وأشرب من أوانٍ فضّيّة. وأتمتع باللعب والمرح مع سيِّدي، وإذا تعبت فإنني أستريح على السجّاد أو على وسادة وثيرة. فكيف حالك أنت؟» فرد باربوس وهو يترك ذيله يتدلّى كالسّوط،

من حقائق الطبيعة البشرية أن تركيب مجتمع البلاط يُشَكِّلُ نفسَه بالتفافه حول السلطة. وفي الماضي كان البلاط يجتمع حول الحاكم. وكانت له مهمات كثيرة. فبالإضافة إلى إبقاء الحاكم لاهياً بالتسلية، فقد كانت طريقته لترسيخ مراتب العائلة المالكة، والنبلاء، والطبقات العليا، ولإبقاء النبلاء خاضعين وقريبين من الحاكم، بحيث يتمكن من مراقبتهم. والبلاط يخدم السلطة بطرق كثيرة، ولكنه أكثر من كل شيء يمجد الحاكم، فيزوِّده بصورة مصغَّرة عن العالَم الذي يجب أن يناضل ليرضيه.

وكانت مهنة رجل الحاشية لعبة خطرة. فقد كتب رحَّالة عربي في القرن التاسع عشر زار بلاط درفور، فيما يعرف اليوم باسم السودان، أن رجال الحاشية كان عليهم أن يفعلوا كل ما يفعله السلطان. فإذا أصيب بجرح فإن عليهم أن يصابوا بالجرح نفسه، وإذا سقط من على حصانه أثناء الصيد، كانوا يسقطون. وكان مثل هذا التقليد يظهر في البلاط في جميع أنحاء العالم. غير أن المتاعب الأكبر كانت تأتي من إغضاب الحاكم. فأية حركة خاطئة كانت تعني الموت أو النفي. فكان رجل الحاشية الناجح مضطراً إلى السير على حبل مشدود، بحيث يسرّ ولكن ليس إلى حدٍّ مفرط، ويطيع الحاكم ولكن يميِّز نفسه بطريقةٍ مّا عن رجال الحاشية الآخرين، ولكن في الوقت نفسه لا يميِّز نفسه على نحو يشعر الحاكم بعدم الأمان.

ولقد أتقن رجال الحاشية العظام علم التلاعب بالناس طوال التاريخ. فهم يشعرون العاهل بملوكيته أكثر، ويجعلون كل شخص آخر يخشى سلطتهم. وهم سَحَرَةُ مظاهر، لعلمهم بأن معظم الأشياء في البلاط يُحْكَم عليها بحسب مظهرها. ورجال الحاشية العظام لطفاء كيِّسون ومهذبون. وعدوانيتهم مقنَّعة وغير مباشرة. كما أنهم يتقنون استخدام الكلمات، فلا يقولون أبداً أكثر مما هو ضروري. ويستخرجون أكثر ما يمكن استخلاصه من كلمة مدح أو إهانة. وهم مغناطيس مسرَّات ـ يحبّ الناس أن يكونوا بالقرب منهم لأنهم يعرفون كيف يَسُرُّون، ومع ذلك فهم لا يتزلَّفون ولا يُذلّون أنفسهم. ورجال الحاشية العظام يفوزون بالحظوة لدى الملوك، متمتعين بمزايا ذلك المنصب. وكثيراً ما ينتهي بهم الأمر إلى أن يصبحوا أقوى من الحاكم، لأنهم سحرة في تجميع النفوذ المتراكم.

وينبذ كثيرون حياةَ البلاط اليوم ويعتبرونها أثراً من الماضي، وطرفة تاريخية، فيجادلون، حسب رأي ماكيافيللي «وكأن السماء، والعناصر، والبشر قد غيَّروا نظام حركتهم وقوَّتهم، وصاروا مختلفين عما كانوا في العصور القديمة». ربما لم يعد هناك ملوك شموس. ولكن لا يزال هناك أناس كثيرون يعتقدون أن الشمس تدور حولهم. وربما يكون البلاط الملكي قد اختفى أو كاد، أو فقد سلطته على الأقل، ولكن البلاطات ورجال الحاشية لا يزالون موجودين، لأن السلطة لا تزال موجودة. ولم يعد يطلب من رجل الحاشية أن يسقط من على حصانه إلاَّ نادراً، ولكن القوانين التي تحكم سياسة البلاط ثابتة، لا تتغيَّر بمرور الزمن، تماماً كقوانين السلطة وجاذبية القوة. فهناك الكثير ممّا يمكن تعلمه إذن من رجال الحاشية العظام، في الماضي وفي الحاضر.

كما يتدلّى رأسه: «أنا لا أزال أعيش كما كنت، وأعاني البرد والجوع، وهنا، بينما أحرس بيت سيدي، يتعين عليَّ أن أنام عند أسفل الجدار، وأنتقع في المطر، وإذا نبحتُ في الوقت غير المناسب جُلِدْت بالسوط. ولكنك يا جوجو كنتِ صغيرة وضعيفة، فكيف فُزْتِ بالحظوة، بينما أكاد أنا أخرج من إهابي بلا فائدة؟ فما الذي تفعلينه؟» فقالت جوجو ساخرة: «إنه لسؤال لطيف تطرحه! إنني أمشي على قائمتيّ الخلفيتين».

خرافات

إيفان كريلوف

1844–1768

قوانين سياسة البلاط

تجنَّب التفاخر: ليس من الحكمة أبداً أن تثرثر عن نفسك بلا توقف، أو أن تلفت إلى أعمالك انتباهاً مفرطاً في زيادته. لأنه كلما زاد

حديثك عن أعمالك تزايد الشك الذي تثيره. كما أنك تثير من الحسد بين زملائك ما يكفي لإغرائهم بالخيانة والطعن في الظهر. كن حذراً، بل شديد الحرص من التطبيل لإنجازاتك. وتحدَّث عن نفسك دائماً بأقل ممّا تتحدث عن الآخرين. فالتواضع هو المفضل على وجه العموم.

مارِس عدم الاكتراث: لا تظهر كأنك تعمل بصورة شاقة، بل يجب أن تظهر موهبتك وكأنها تدفق طبيعي يأتي بسهولة عفوية تجعل الناس يعتقدون أنك عبقري، ولست مهووساً بالعمل. وحتى عندما يتطلَّب شيءٌ مّا عملاً وعَرَقاً غزيراً، اجعله يبدو كأنه شيء لا مشقة فيه ولا تعب. فالناس يفضلون أن لا يروك تتعب وتكدح، فهذا مظهر آخر من مظاهر التفاخر. بل إن تعجبهم من إنجازك العمل برشاقة وسهولة خير من تعجبهم من كثرة العمل الذي اقتضته تلك المسألة.

اقتصد في التملُّق: قد يبدو مَنْ هم أعلى منك وكأنهم لا يشبعون من التملُّق. ولكن أي شيء يزيد عن حده ـ حتى وإن كان جيِّداً ـ يفقد قيمته. كما أن كثرة التملُّق تثير الشكوك بين زملائك. فتعلَّم أن تتملَّق بأسلوب غير مباشر ـ كأن تقلِّل من قيمة إسهامك مثلاً، لتجعل سيِّدك يبدو أفضل.

إعمل على أن يلاحظك الآخرون: هناك مفارقة هي أنك لا تستطيع أن تعرض نفسك بصفاقة، ومع ذلك فإن عليك أن تسعى كي يلاحظك الآخرون. ففي بلاط لويس الرابع عشر، كان كُلّ مَنْ يقرِّر الملك أن ينظر إليه يرتفع في مراتب البلاط على الفور. ولن تتاح لك فرصة الصعود إن لم يلاحظك الحاكم في غمار رجال الحاشية. وهذه مهمة تتطلَّب كثيراً من الفنّ. وكثيراً ما تكون بادىء الأمر مسألة أن يُرى المرء، بالمعنى الحرفي للكلمة، اهتم بمظهرك الجسدي، وأوجد طريقة لإعطاء تميّز في أسلوبك وصورتك، تميّز يبرز بطريقة خفية ذكية لبقة.

غيِّر أسلوبك ولهجتك بحسب الشخص الذي تتعامل معه: إن الاعتقاد الكاذب بالمساواة ـ أي الفكرة القائلة بأن تحدث وتصرف

إن من الحكمة أن يكون المرء مهذَّبًا، وبناءً عليه فإن من الغباء أن يكون جلفًا. إن كسب الأعداء بقلّة التهذيب المعتمدة وغير الضرورية هو شيء يعادل في حمقه الانطلاق إلى إحراق بيتك. ذلك أن التهذيب فيشه –أي قطعة عملة مزوّرة بالتأكيد، ومن الحمق أن يبخل المرء بها. فالرجل المعتقل يكون سخيّاً بها... فالشمع، وهو المادة القاسية والهشّة بطبيعتها يمكن أن يصبح طريًا بإدخال قليل من الدفء عليه، بحيث يمكن أن يتكيف بأي شكل تريده. وبالطريقة نفسها فإنك بكونك مهذَّبًا وودودًا تستطيع أن تجعل الناس مطاوعين يلبون لك طلباتك حتى وإن كانوا ميّالين إلى النكد وسوء

النية. ومن هنا فإن التهذيب بالنسبة إلى الطبيعة الإنسانية مثل الدفء بالنسبة إلى الشمع.

آرثر شوبنهاور

1960–1788

بالطريقة نفسها مع الجميع مهما كانت رتبتهم سيجعلك بطريقةٍ مّا مثلاً يحتذى في الحضارة ـ إنما هو خطأ رهيب. فالذين هم أدنى منك سيعتبرون ذلك نوعاً من التنازل، وهو كذلك بالفعل، والذين هم أعلى منك سيتضايقون، حتى ولو لم يعترفوا بذلك. إن عليك أن تغيِّر أسلوبك وطريقتك في الحديث لتناسب كل شخص على حدة فتخاطب كلاً بما يفهم. وليس هذا كذباً، بل هو تمثيل. والتمثيل فن، وليس موهبة من الله. فتعلّم هذا الفن. وهذا ينطبق بشكل صحيح أيضاً على الثقافات الشديدة التنوع في البلاط الحديث. فلا تفترض أبداً أن معاييرك في السلوك والحكم هي الشاملة الشائعة عالمياً. فعدم القدرة على التكيّف مع ثقافة أخرى ليست قمة الهمجية فحسب، بل هي ضارة بك تضعك موضع المحروم.

لا تكن ناقلاً للأخبار السيئة: إن الملك يقتل الرسول الذي يأتيه بالأخبار السيِّئة. هذه مقولة مكرَّرة مبتذلة ولكن فيها شيئاً من الصحة. إن عليك أن تكافح، بل وأن تكذب وتغش عند الضرورة، حتى لا يكون نقل الأخبار السيِّئة من نصيبك أبداً، بل من نصيب أحد زملائك. اجلب أخباراً جيِّدة فقط، وسوف يعتاد سيدك على السرور عند اقترابك منه.

لا تفتعل صداقة أو علاقة حميمة مع سيّدك قطّ: إنه لا يريد صديقاً له كتابع. بل إنه يريد تابعاً فحسب. فلا تقترب منه بطريقة سهلة وودية، أو تتصرَّف وكأنك على أفضل علاقة به ـ فهذا امتياز له هو. فإذا شاء هو أن يتعامل معك على هذا المستوى، فاتخذ دور الصديق الحذِر. وإلاَّ فاتجه بتصرفك إلى الناحية الأسلم وهي إبقاء المسافة بينك وبينه واضحة.

لا توجه نقداً مباشراً لمن هم فوقك أبداً: قد يبدو هذا شيئاً واضحاً. غير أن هناك أوقاتاً يكون فيها شيء من النقد ضرورياً ـ وعندئذ فإن الصمت أو عدم تقديم النصيحة يعرِّضك لمخاطر من نوع آخر. غير أن عليك أن تتعلَّم صياغة نقدك ونصيحتك بشكل غير مباشر ومهذَّب

بقدر المستطاع. فكِّر مرَّتين، أو ثلاثاً، قبل أن تقرِّر أنك قدَّمتهما مداورة بشكلٍ كافٍ. ولا بأس أن يكون لطفك زائداً، وكذلك كياستك وذكاؤك.

اقتصد في طلب المعروف ممَّن هم فوقك: لا شيء يزعج السيد أكثر من اضطراره لرفض طلب شخصٍ مّا. فذلك يثير شعوره بالذنب وبالغضب. وليكن طلبك للمعروف نادراً بقدر الإمكان. واعرف متى تتوقَّف. وبدلاً من أن تكون في موقف المتضرِّع، فإن من الأفضل دائماً أن تكسب المعروف أو الجميل، بحيث يمنحك إياه السيد بإرادته. وأهم من ذلك كله: لا تطلب معروفاً بالنيابة عن شخص آخر، ولا سيما إذا كان صديقاً على وجه الخصوص.

لا تمزح حول المظاهر والأذواق: إن الفطنة الحية والبديهة الحاضرة ومزاج الدعابة مؤهلات ضرورية لرجل الحاشية الجيِّد، وهناك أوقات تكون فيها الفظاظة الخشنة ملائمة وجذابة. ولكن تجنَّب أي نوع من المزاح حول المظهر والذوق، فهما مجالان شديدا الحساسية، وخصوصاً مع مَنْ هم فوقك. بل لا تحاول ذلك حتى عندما تكون بعيداً عنهم. وإلاَّ فإنك تحفر قبرك بنفسك.

لا تكن ساخر البلاط: عبِّر عن إعجابك بالعمل الطيِّب للآخرين. أما إذا انتقدت أترابك ومرؤوسيك باستمرار، فإن شيئاً من ذلك النقد سيرتد عليك ويحوم حولك كالغمامة الرمادية أينما ذهبت. وسوف يتأوه الناس عند كل تعليق ساخر جديد. وسوف يتضايقون منك. فبالتعبير عن إعجاب متواضع بإنجازات الآخرين، تلفت الانتباه لإنجازاتك أنت. وهذه مفارقة. ذلك أن القدرة على التعبير عن التعجب والذهول، على أن يظهر التعبير جاداً ومقصوداً، هي موهبة نادرة وآخذة في التلاشي ولكن الناس ما زالوا يقدرونها تقديراً عالياً.

كن رقيباً على نفسك: المرآة اختراع معجز؛ فبدونه ترتكب خطايا كبرى ضد الجمال واللياقة. فأنت بحاجة أيضاً إلى مرآة لأعمالك. وقد يأتي ذلك أحياناً من الآخرين الذين يخبرونك بما يرونه فيك. ولكن

ليست هذه هي أكثر ما يُعْتَمَدُ عليه من طرق. فيجب أن تكون أنت المرآة، تدرِّب ذهنك على محاولة رؤية نفسك كما يراك الآخرون. هل تتصرَّف بخنوع مفرط؟ وهل تحاول أن ترضي الآخرين بشكل مفرط؟ وهل تبدو متلهفاً إلى حدِّ الجزع على كسب الاهتمام، بحيث تعطي انطباعاً بأنك آخذ في الانحدار؟ كن رقيباً على نفسك، وسوف تتجنَّب جبلاً من الأخطاء.

تحكَّم في عواطفك: عليك، كالممثل في مسرحية عظيمة، أن تتعلَّم أن تبكي وتضحك عندما تتلقَّى أمراً بذلك أو عندما يكون ذلك ملائماً. وعليك أن تكون قادراً على إخفاء غضبك وإحباطك، وتتظاهر بالرضا والموافقة. وعليك أن تتحكَّم بتعابير وجهك. وسمِّ ذلك كذباً إن أحببت. ولكن إن كنت تفضِّل أن لا تمارس اللعبة، وأن تكون صادقاً ومواجهاً على الدوام، فلا تتذمَّر إذا سمَّاك الآخرون بغيضاً ومتغطرساً.

تكيَّف وروح العصر: إن تكلفاً خفيفاً لفترة ماضية قد يكون جذاباً ما دمت تختار فترة ماضية تبعد عن الزمن الراهن عشرين عاماً على الأقل؛ فارتداء الزي الذي كان سائداً قبل عشرة أعوام يثير السخرية، إلاَّ إذا كنت تتمتَّع بلعب دور مهرِّج البلاط. إن على روحك وطريقة تفكيرك أن تواكبا العصر، حتى إذا كان العصر يؤذي أحاسيسك. غير أن تفكيرك إن كان اقتحامياً على نحو مفرط فلن يفهمك أحد. فبروزك في هذا المجال أكثر من اللازم ليس فكرة جيدة على الإطلاق؛ فالأفضل لك أن تكون قادراً على الأقل على تقليد روح العصر.

كن مصدراً للسرور: فذلك أمر حسَّاس الأهمية. فمن القوانين الواضحة للطبيعة البشرية أننا نهرب مما هو كريه وبغيض، أما الفتنة والوعد بالمسرة فيجتذباننا كالهوام نحو اللهب. فاجعل نفسك لهباً وستصعد إلى القمة. وبما أن الحياة مليئة بالمنغِّصات والسرور فيها نادر يأتي في الفلتات، فستصبح شخصاً لا يُسْتَغْنَى عنه كالطعام والشراب. وقد يبدو هذا أمراً واضحاً. ولكن ما هو واضح كثيراً ما يتعرَّض للتجاهل

وعدم التقدير. وهناك درجات لذلك، فليس كل واحد قادراً على أداء دور صاحب الحظوة، لأنه ليس كل واحد متمتعاً بنعمة الفطنة والجاذبية. غير أننا جميعاً قادرون على السيطرة على صفاتنا البغيضة، والتعتيم عليها عند الضرورة.

إن الرجل الذي يعرف أن البلاط هو السيد المتحكِّم في إشاراته، ونظرات عينيه وملامح وجهه يكون عميق الغور، لا يمكن النفاذ إليه؛ يبدِّد المساعي الخبيثة، ويبتسم لأعدائه، ويسيطر على انزعاجه، ويخفي عواطفه المشبوهة، ويكذِّب قلبه، ويتحدَّث ويتصرَّف بعكس مشاعره.

(جان دي لابرويير، 1645-1696)

مشاهد من حياة البلاط: أعمال مثالية وأخطاء قاتلة

المشهد الأول

كان أرسطو العظيم أستاذاً وموجهاً للاسكندر الأكبر، فاتح حوض البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط، وصولاً إلى الهند. وقد ظلَّ الاسكندر طيلة حياته مكرِّساً اهتمامه للفلسفة وتعاليم أستاذه. وقد شكا لأرسطو ذات مرة أنه خلال حملاته الطويلة لم يكن لديه أحد يستطيع أن يناقش معه قضايا فلسفية. فردَّ عليه أرسطو باقتراح أن يصطحب كالستين، التلميذ السابق لأرسطو، والفيلسوف الواعد بحد ذاته، في الحملة التالية.

وكان الاسكندر قد درَّب كالستين على مهارات رجل الحاشية ولكن ذلك الشاب كان في سرِّه يسخر من تلك المهارات. إذ كان يؤمن بالفلسفة المحضة، وبالكلمات غير المنمَّقة، وبالتحدُّث عن الحقيقة العارية. وكان يفكِّر أنه إذا كان الاسكندر يحبّ التعلُّم إلى هذه الدرجة، فإنه لن يستطيع الاعتراض على رجل يقول ما بذهنه بصراحة. وأثناء واحدة من حملات الاسكندر الكبرى، تحدَّث كالستين بما في ذهنه مرَّة

أكثر من اللازم، فكانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فأمر الاسكندر بقتله.

التفسير

إن الصدق في البلاط هو لعبة الأحمق. فإياك أن تنشغل بحبِّ ذاتك إلى درجة الاعتقاد بأن السيد مهتم بانتقاداتك له، مهما كانت دقة تلك الانتقادات.

المشهد الثاني

بدءاً من سلالة هان، قبل ألفي عام، قام الباحثون الصينيون بتجميع سلسلة من الكتابات أطلقوا عليها اسم **التواريخ الواحد والعشرين**، وهي سيرة رسمية لحياة كل سلالة، اشتملت على قصص، وإحصائيات، وأرقام، وتواريخ للحروب. وقد احتوى كل تاريخ على فصل بعنوان: «أحداث غير عادية». وهنا، ضمن تعداد الزلازل والفيضانات، تظهر أحياناً بشكل مفاجىء، أوصاف لمظاهر غريبة وشاذة، كخروف ذي رأسين، وإوزّ يطير إلى الوراء، ونجوم تظهر فجأة في أنحاء مختلفة من السماء، وهكذا دواليك. أما الزلازل فقد أمكن التحقق منها تاريخياً؛ وأما الوحوش والظواهر الطبيعية الغريبة، فقد كان من الواضح أنها أُدْخِلَت عن قصد. وهي متجمّعة كالعناقيد. فما المعنى المحتمل لذلك؟

لقد كان الإمبراطور الصيني يُعْتَبَرُ أكثر من إنسان ـ كان قوّة من قوى الطبيعة.. ومملكته مركز العالم، بل الكون كله، وكل شيء يدور حوله، إذْ كان يمثّل كمال العالممكان انتقاده، أو انتقاد أي من أعماله، يعني انتقاد النظام الإلهيّ. فلم يكن أي وزير أو رجل حاشية يجرؤ على الاقتراب من الإمبراطور حتى بأقل كلمة تحذير. ولكن الأباطرة لم يكونوا معصومين، فكانت المملكة تعاني من أخطائهم بشدة. فكان إدخال مشاهدة الظواهر الغريبة في تواريخ البلاط، هو الطريقة الوحيدة لتحذيرهم. وهكذا، فعندما يقرأ الإمبراطور عن الإوزّ الطائر إلى الوراء،

والأقمار الخارجة عن أفلاكها، يدرك أنه يتلقى تحذيراً. إذْ أن أعماله تخلّ بتوازن الكون، وتحتاج إلى تغيير.

التفسير

عند رجال الحاشية الصينيين، كانت مشكلة كيفية توجيه النصح للإمبراطور قضية هامة. فعلى مدى السنين، مات الألوف منهم وهم يحاولون تحذير سادتهم وإسداء المشورة لهم. فلكي تتم انتقاداتهم بسلام، كان يجب توجيهها بطريقة غير مباشرة. غير أنها إذا كانت غير مباشرة **أكثر من اللازم** فلن يتنبَّهوا إليها أو يعبأوا بها. فكانت التواريخ عندهم هي الحلّ: فهي لا تحدِّد شخصاً بعينه باعتباره موضع النقد، كما أنها تجعل النصيحة غير شخصية بقدر المستطاع، ولكنها تدع الإمبراطور يعرف خطورة الوضع.

إن سيدك لم يعد مركز الكون، ولكنه ما يزال يتصوَّر أن كل شيء يدور حوله. فعند انتقادك له فإنه يرى الشخص الناقد، ولا يرى النقد نفسه. فمثل رجال الحاشية الصينيين، يتعيَّن عليك أن تجد طريقة للاختفاء خلف التحذير. استخدم الرموز وطرقاً أخرى غير مباشرة لرسم صورة للمشاكل القادمة، بدون أن تضع رقبتك على النطع.

المشهد الثالث

في بواكير الحياة العملية للمعماري الفرنسي جول مانسار، كان يتلقى طلبات لتصميم إضافات صغرى لقرساي، يوصي بها الملك لويس الرابع عشر. وكان يرسم خططه لكل تصميم، عاملاً على التأكد من اتباع تعليمات لويس بشكل وثيق. ثم يقدِّم تصاميمه لصاحب الجلالة.

وقد وصف رجلُ الحاشية سان سيمون أسلوبَ مانسار في التعامل مع الملك: «كانت براعته تتركز بشكل خاص في أن يعرض على الملك خططاً يتعمَّد أن تتضمَّن شيئاً من النقص، له علاقة على الأغلب

بالحدائق، التي لم تكن مجال اختصاص مانسار. فكان الملك ـ كما يتوقع مانسار ـ يضع إصبعه على المشكلة بالضبط، ويقترح كيفية حلها. وعندئذٍ يصيح مانسار لجعل الجميع يسمعون بأنه ما كان له أن يرى المشكلة التي عثر عليها الملك بهذه البراعة الأستاذية وحلّها؛ ثم يتفجَّر مانسار إعجاباً، معترفاً بأنه ليس سوى تلميذٍ متواضع إلى جانب الملك». وفي الثلاثين من عمره، بعد أن استخدم هذه الأساليب مرة تلو أخرى، تلقى طلباً ملكياً متميِّزاً: فعلى الرغم من أن مانسار كان أقل موهبة وخبرة من عدد من المصممين الفرنسيين الآخرين، فقد طلب منه أن يتولى مسؤولية توسيع مدينة ڤرساي، إذ صار معماريّ الملك منذ ذلك الحين فصاعداً.

التفسير

كان مانسار قد رأى في شبابه كم من الحرفيين الملكيين في خدمة لويس الرابع عشر فقدوا مناصبهم، لا لنقص في مواهبهم، بل نتيجة لغلطة اجتماعية باهظة الكلفة. فقرَّر أن لا يرتكب مثل هذه الغلطة. وظل يكافح دائماً لجعل لويس يشعر بالرضا عن نفسه، ولتغذية غرور الملك بأكبر قدر ممكن من العلانية.

فإياك أن تتصوَّر أن المهارة والموهبة هما وحدهما كل ما يهم. ففي البلاط يكون تفنن رجل الحاشية أهمّ من موهبته. فلا تصرف على دراساتك وقتاً يبلغ من طوله أن يجعلك تهمل مهاراتك الاجتماعية. وأعظم هذه المهارات جميعاً، هي: قدرتك على جعل السيد يبدو أكثر موهبة ممَّن هم حوله.

المشهد الرابع

كان جان ـ بابتيست إيسابي، قد أصبح الرسَّام غير الرسمي للبلاط النابوليوني. وأثناء مؤتمر ڤيينا سنة 1814، بعد أن سجن نابليون المدحور

على جزيرة إلبا، قام المشتركون في تلك الاجتماعات، التي كانت تقرر مصير أوروبا، بدعوة إيسابي إلى تخليد تلك الأحداث التاريخية في لوحة ملحمية.

وعند وصول إيسابي إلى ڤيينا، زاره تاليران، المفاوض الرئيسي عن الفرنسيين. وأوضح للفنان بأنه نظراً لدوره في مجريات المؤتمر فإنه يتوقع أن يحتل مركز المشهد في اللوحة العتيدة. فوافق إيسابي على ذلك بصورة وديّة. وبعد أيام قلائل، اقترب منه أيضاً دوق ويلنغتون، المفاوض الرئيسي عن الإنكليز، وقال له شيئاً يشبه كثيراً ما قاله تاليران. فوافق إيسابي، المهذَّب دائماً، على أن الدوق ينبغي فعلاً أن يكون في مركز الاهتمام.

وفي الاستديو، فكَّر إيسابي في هذا المأزق، فإذا سلَّط الضوء على أيٍّ من الرجلين، فقد يخلق انشقاقاً دبلوماسياً، ويثير كل أنواع الغضب في وقت كان فيه السلام والوفاق يتعرَّضان لموقف حسَّاس الأهمية. غير أنه عندما أزيح الستار عن اللوحة في آخر الأمر، شعر كل من تاليران وويلنغتون بالرضا لحصولهما على التكريم. إذ كانت اللوحة تصوِّر قاعة كبيرة ملأى بالدبلوماسيين والسياسيين من جميع أنحاء أوروبا. ومن جانب بدا دوق ويلنغتون داخلاً إلى الغرفة وكل الأنظار متجهة إليه، إذ أنه «مركز» الاهتمام، بينما يجلس تاليران... في وسط الصورة تماماً.

التفسير

كثيراً ما يكون إرضاء السيد صعباً. ولكن إرضاء سيدين بلمسة واحدة ضربة معلِّم تتطلَّب عبقرية رجل حاشية عظيم. ومثل هذه المحن مألوفة في حياة رجل الحاشية. إذ أنه عندما يهتم بسيد يغضب سيداً آخر، فعليك أن تجد طريقة للمناورة للخروج من هذا المأزق بسلام لأنه يشبه المرور بين سيلا وتشاريبديس [وحشان في الأساطير الإغريقية كانا يرعبان البحارة في مضيق مسينا قرب صقلية]. فالسادة يجب أن يتلقوا ما يستحقون. وإياك أن تثير غضب أحدهم بإرضاء الآخر.

المشهد الخامس

اشتهر جورج بروميل، المعروف أيضاً ببروميل الوسيم في أواخر القرن الثامن عشر، فبرز في مجتمعه بشدة أناقة مظهره، وإضفائه شعبية كبيرة على أبازيم الأحذية (التي سرعان ما راح يقلِّدها كل غندور شديد التألُّق) وببراعته في الكلام. فكان بيته في لندن البقعة **الوحيدة** للأزياء والموضة. وكان بروميل هو الحجة والمرجع في كل ما له علاقة بالأناقة. فإن كره حذاءك فإنك تغيّره على الفور وتشتري ما يرتديه هو. وقد أتقن فنّ تشكيل العقدة في ربطة العنق؛ وقيل إن اللورد بايرون كان يمضي ليالي كثيرة أمام المرآة ليفهم السرّ الكامن وراء عُقَد بروميل المثالية الكمال.

وكان من أكبر المعجبين ببروميل أمير ويلز، الذي كان يتصوَّر نفسه شاباً عصرياً صاحب ذوق في ملابسه. وعندما التحق بروميل ببلاط الأمير (وتلقى معاشاً ملكياً)، راح يشعر بسلطته بثقة بالنفس هناك وصلت إلى حد جعله يلقي بالنكت حول وزن الأمير، فيشير إليه بلقب بيغْ بِنْ. وبما أن رشاقة الوزن كانت من الصفات الهامة للغندور آنذاك، فقد كان ذلك نقداً صاعقاً شادهاً. وأثناء العشاء ذات مرة، كانت الخدمة بطيئة، فقال بروميل للأمير: «اقرع الجرس يا بيغْ بِنْ» فقرع الأمير الجرس، ولكنه عندما جاء الخادم الخصوصي أمره الأمير أن يخرج بروميل من الباب، وأن لا يسمح له بالدخول مرة أخرى أبداً.

ورغم سقوط حظوته لدى الأمير، فقد استمر بروميل في معاملة كل من حوله بالغطرسة نفسها. وبدون الدعم الذي توفره رعاية الأمير، فقد غرق بروميل في الديون بشكل رهيب. غير أنه استمر في أساليبه الوقحة. وسرعان ما تخلى عنه الجميع، فمات في فقر مدقع يرثى له، وحيداً ومجنوناً.

التفسير

كانت فطنة بروميل الوسيم الحاضر البديهة واحدة من أهم الصفات

التي حبَّبته إلى أمير ويلز. ورغم أنه كان الحَكَمَ والمرجع في أمور الذوق والأناقة فإن ذلك لم يشفع له من تلقي العقوبة بسبب مزاحه حول مظهر الأمير. ولا سيما بحضوره وعلانية. فإياك أن تمزح حول بدانة شخصٍ مّا، حتى ولو بصورة غير مباشرة ـ ولا سيما عندما يكون سيدك. ذلك أن دور الفقراء عبر التاريخ مليئة بالأشخاص الذين مزحوا بمثل هذه الأساليب على حساب سادتهم.

المشهد السادس

كان البابا أربان الثامن، يريد أن يذكره التاريخ لمهاراته في كتابة الشعر، وهي مهارات كانت ـ لسوء الحظ، متواضعة، أو متوسطة على أفضل تقدير. وفي سنة 1629، قام الدوق فرانسيسكو ديست (الذي كان يعرف ادعاءات البابا الأدبية) بإرسال الشاعر فولفيو تيستي كسفير له إلى الفاتيكان. وتكشف إحدى رسائل تيستي إلى الدوق لماذا وقع الاختيار عليه: «وعندما انتهت مناقشتنا، ركعت كي أغادر، ولكن قداسته أشار بيده ثم سار إلى غرفة أخرى كان ينام فيها. وعندما وصل إلى طاولة صغيرة، التقط رزمة من الأوراق، والتفت إليَّ بوجه باسم وقال لي: «نريد من سيادتكم أن تستمعوا إلى بعض تآليفنا المنظومة»، وقرأ عليَّ قصيدتين طويلتين جداً تقلِّدان أسلوب بندار [الشاعر الغنائي الإغريقي الكبير الذي عاش من 522 إلى 442 ق.م.]، إحداهما في مدح العذراء المقدَّسة، والأخرى عن الكونتيسة ماتيلدا».

ولا نعرف بالضبط ماذا كان رأي تيستي في هاتين القصيدتين الطويلتين جداً، لأنه كان من الخطر عليه أن يذكر رأيه بحرية، حتى في رسالة. ولكنه تابع يقول: «وقد تابعت مزاج قداسته بالتعليق على كل بيت من الشعر بالمديح المطلوب، وبعد أن قبَّلت قدم قداسته لهذه البركة التي اختصني بها [قراءة شعره]، غادرت المكان». وبعد أسابيع، عندما قام الدوق نفسه بزيارة البابا، استطاع أن يتلو أبياتاً كاملة من شعر البابا

ويمتدحها بشكل كان كافياً لجعل البابا «شديد الفرح بحيث بدا كأنه فقد عقله».

التفسير

في قضايا الذوق، لا يشبع سيدك من أية كمية من الخنوع تبديها له. فالذوق من أشد أقسام الذات تحسساً، فإياك والطعن أو التشكّك في ذوق السيد ـ فشعره رائع السمو، ولباسه كامل لا مغمز فيه، وأسلوبه مثال يحتذى للناس جميعاً.

المشهد السابع

ذات مساء، في الصين القديمة، كان تشاو، حاكم هان من سنة 358 إلى 333 ق.م، قد سكر حتى غلبه النوم في حدائق القصر. فمرَّ من الحدائق حامل تاج البلاط، الذي كانت مهمته الوحيدة هي الاهتمام بلباس رأس الحاكم، ورأى سيده نائماً بدون سترة. وبما أن الجوّ كان آخذاً في البرودة، فقد ألقى حامل التاج بسترته على جسد الحاكم، وغادر المكان.

وعندما أفاق الحاكم ورأى السترة عليه سأل مرافقيه: «مَنْ وضع مزيداً من الملابس على جسدي؟» فأجابوا: «حامل التاج». وعلى الفور نادى الحاكم على حامل سترته وعاقبه على إهمال واجباته، ثم طلب حامل التاج وأمر بقطع رأسه.

التفسير

لا تتعدَّ حدودك. واعمل ما أنت مكلَّف به، حسب أقصى ما لديك من طاقات، ولا تفعل شيئاً غير ذلك أبداً. فمن الأخطاء الشائعة اعتقادك بأنك إن فعلت أكثر فإن ذلك سيكون أفضل. فليس جيِّداً أبداً أن تبدو كأنك تفرط في محاولاتك، لأن ذلك يعرِّضك للظنّ بأنك تخفي نقصاً مّا. ذلك أن إنجازك مهمة لم تكلّف بها لا يزيد على أن يجعل

الناس يرتابون بك. فإن كنت حامل تاج فكن حامل تاج فحسب. ووفِّر طاقتك الزائدة لتستخدمها وأنت خارج البلاط.

المشهد الثامن

ذات يوم، وبقصد التسلية والمرح، أبحر الرسَّام الإيطالي من عصر النهضة، فرَا فيليبو ليبِّي (1406 ـ 1469) مع بعض أصدقائه في قارب صغير على مبعدة من سواحل آنكونا. هناك أسرتهم سفينتان شراعيتان مغربيتان كبيرتان، ونقلتاهم مقيّدين بالسلاسل إلى السواحل البربرية في شمال إفريقيا، حيث بيعوا كعبيد. وهكذا راح فيليبو يكدح طيلة ثمانية عشر شهراً، بلا أمل في العودة إلى إيطاليا.

وفي عدة مناسبات شاهد فيليبو الرجل الذي اشتراه يمرّ بصورة عابرة، فقرَّر ذات يوم أن يرسم مخططاً لصورة الرجل مستخدماً قطعة فحم مستخرجة من النار. وكان لا يزال مصفداً في أغلاله. فوجد جداراً أبيض، فرسم عليه صورة بالطول الكامل لمالكه بملابسه المغربية. وسرعان ما سمع المالك بذلك، لأنه لم يسبق لأحدٍ أن رأى مثل هذه البراعة في الرسم في تلك الأماكن. فبدت تلك الموهبة كمعجزة، كأنها عطية من الله. وبلغ من سرور المالك بها أن أعطى فيليبو حريته في الحال واستخدمه في بلاطه. وجاء جميع الرجال الكبار في بلاد البربر لرؤية الصورة الرائعة بالألوان الكاملة التي شرع فيليبو برسمها. وأخيراً، وعرفاناً بهذا التكريم الذي أضفته اللوحة على مالك فيليبو، قام المالك بإعادة الفنان سالماً إلى إيطاليا.

التفسير

نحن الذين نكدح من أجل الآخرين قد أسرنا القراصنة بطريقةٍ مّا وباعونا عبيداً أرقاء. ولكن معظمنا، مثل فْرَا فيليبو، ولو بدرجة أقل، يملك موهبةً مّا، قدرة على عمل شيء مّا أفضل مما يعمله الآخرون. قدِّم لسيدك هدية من مواهبك، وسترتفع فوق رجال الحاشية الآخرين.

ودعه يأخذ الفضل عند الضرورة، لأن ذلك سيكون مؤقتاً فقط. استخدمه كمنصة قفز، كطريقة لعرض موهبتك وشراء حريتك من العبودية في خاتمة المطاف.

المشهد التاسع

كان لآلفونصو الأول خادم قال للملك إنه رأى في المنام في الليلة السابقة أن آلفونصو قد أعطاه هدية من الأسلحة والخيل والملابس. وكان آلفونصو رجلاً كريماً جليلاً، فقرَّر أن من المسلِّي أن يحقِّق هذا الحلم، فسارع إلى منح الخادم تلك الهدايا بالضبط.

وبعد برهة قصيرة أعلن الخادم نفسه أنه شاهد حلماً آخر يعطيه فيه آلفونصو كومة كبيرة من الفلورينات الذهبية. فابتسم الملك وقال له: «لا تصدِّق الأحلام من الآن فصاعداً؛ إنها تكذب».

التفسير

في التعامل مع رؤيا الخادم الأولى، ظل آلفونصو هو المسيطر. فبتحقيق الحلم زعم لنفسه قدرة شبه إلهية، ولو بطريقة خفيفة فيها شيء من الدعابة. غير أن كل مظهر للسحر كان قد اختفى في الحلم الثاني. إذ أنه لم يكن سوى لعبة احتيال قبيحة من جانب الخادم. فلا تفرِّط في طلباتك إذن، بل اعرف متى تتوقَّف. إن العطاء امتياز للسيد دون سواه، فهو الذي يعطي ما يشاء عندما يشاء، ويفعل ذلك دون حث أو تحريض. فلا تعطه فرصة رفض طلباتك. فالأفضل أن تكسب أنواع التكريم دون أن تطلبها، بل لأنك تستحقها، فتُضْفَى عليك كمنحة.

المشهد العاشر

كان الرسَّام الإنكليزي العظيم للمناظر الطبيعية الريفية جوزيف مالورد وليام تيرنر (1775 ـ 1851) معروفاً باستخدامه للألوان، التي كان يطبقها بألمعية، وبتقزُّح غريب. بل إن الألوان في لوحاته كانت مذهلة بحيث لم يكن الفنانون الآخرون يرغبون في أن تُعَلَّق لوحاتُهُ إلى جانب

لوحاتهم. . لأنها كانت تجعل كل شيء حولها يبدو قاتماً.

وذات مرة، كان من سوء طالع الرسام السير توماس لورانس أن يرى رائعة تيرنر المعنونة **كولون** معلَّقة في معرض بين لوحتين من أعماله. فاشتكى بمرارة لصاحب المعرض، الذي لم يرضه، لأنه يجب في آخر الأمر تعليق لوحات **شخصٍ** مّا إلى جانب لوحات تيرنر. ولكن تيرنر سمع بشكوى لورانس. وقبل افتتاح المعرض، قلَّل بريق السماء الذهبية في **كولون**، فجعل ألوانها قاتمة كقتامة الألوان في أعمال لورانس. فاقترب من تيرنر صديق له كان قد رأى لوحته تلك، وفي عينيه نظرة ذعر، وسأله: «ما الذي فعلته بصورتك!» فأجاب تيرنر: «حسناً، لقد كان لورانس المسكين شديد التعاسة. ولم أضف على اللوحة سوى هباب مصباح سيزول عن اللوحة بعد المعرض.

التفسير

إن كثيراً من مصادر قلق رجال الحاشية لها علاقة بالسيد الذي تكمن فيه معظم الأخطار. ومع ذلك فإن من الخطإ أن تعتقد أن السيد هو الوحيد الذي يقرِّر مصيرك. فأترابك ومرؤوسوك يلعبون أدواراً متكاملة كذلك. ذلك أن البلاط هو خلطة حساء من أنواع السخط، والمخاوف، والحسد القويّ. وعليك أن ترضي كل شخص يحتمل أن يؤذيك ذات يوم. فتحرف سخطهم وحسدهم بعيداً عنك، وتوجّه عداوتهم إلى أناس آخرين.

وكان تيرنر، وهو رجل الحاشية البارز، يعرف أن حظه السعيد وشهرته يعتمدان على زملائه من الرسامين، تماماً كما يعتمدان على بائعي لوحاته ومَنْ يضعونه تحت رعايتهم. وكم من العظماء أسقطهم زملاؤهم الحاسدون! فتعتيم لمعانك مؤقتاً خير من أن تعاني من مقالع الحسد وسهامه.

المشهد الحادي عشر

كان ونستون تشرشل فناناً هاوياً. وبعد الحرب العالمية الثانية

صارت لوحاته نفائس يتنافس عليها جامعو التحف. بل إن الناشر الأميركي هنري لويس، مؤسس مجلتي **تايم ولايف** كان يحتفظ بلوحة فيها منظر طبيعيّ ريفيّ من رسم تشرشل في مكتبه الخاص بنيويورك.

وذات مرة قام تشرشل، أثناء جولة له في الولايات المتحدة، بزيارة لوس في مكتبه. فنظر الرجلان إلى تلك اللوحة معاً. فأبدى الناشر ملاحظة: «إنها صورة جيدة، ولكنني أعتقد أنها تحتاج إلى شيء في الجزء الأمامي، كخروف... ربما». ولرعب هنري لوس، اتصلت به أمينة سر تشرشل في اليوم التالي، وطلبت منه إرسال اللوحة إلى إنكلترا. ففعل لوس ذلك وهو يخشى أن يكون قد أزعج رئيس الوزراء السابق. غير أن اللوحة شحنت له بعد بضعة أيام وفيها تحوير طفيف. كان هناك خروف وحيد يرعى بسلام في مقدمتها.

التفسير

من حيث المكانة والشهرة، كان تشرشل أعلى بكثير من لوس. ولكن لوس كان بالتأكيد رجلاً ذا نفوذ، فدعونا نتصور مساواةً طفيفة بينهما. ومع ذلك، فما الذي كان تشرشل يخشاه من ناشر أميركي؟ ولم الانحناء لنقد أحد هواة الفن؟

إن البلاط ـ وهو في هذه الحالة عالم الدبلوماسيين ورجال الدولة بكامله، ومعهم أيضاً الصحفيون الذين يتوددون إليهم ـ هو مكان للاعتماد المتبادل. ومن عدم الحكمة مضايقة ذوي النفوذ أو إهانة أذواقهم، حتى ولو كانوا دونك أو مساوين لك. فإن كان رجل مثل تشرشل يستطيع ابتلاع نقد رجل مثل لوس، فإنه يثبت أنه رجل حاشية بلا نظير. (ولعل تصحيحه للوحة كان يوحي بشيء من التنازل كذلك. ولكنه قام به بطريقة ذكية خفية بحيث لم يلاحظ لوس أية استهانة به). قلِّد تشرشل؛ وأضف الخروف. لأن من المفيد دائماً أن تلعب دور رجل الحاشية الذي يمتثل، حتى عندما لا تكون في خدمة سيد.

اللعبة الحساسة لرجال الحاشية: تحذير

كان تاليران رجل حاشية محنك، وخصوصاً في خدمة سيده نابليون. وفي الأيام الأولى لتعرُّف كل منهما على الآخر، قال نابليون ذات مرة بصورة عابرة: «سآتي للغداء في بيتك في أحد هذه الأيام». وكان لتاليران منزل في أوتْويلْ.. في ضواحي باريس. فأجاب: «سوف يسرني ذلك يا عزيزي الجنرال، وبما أن بيتي قريب من غابة بولون، فإنك تستطيع أن تسلي نفسك بشيء من الرماية عند العصر».

فقال نابليون: «لا أحب الرماية. ولكنني أهوى الصيد، فهل هناك أي خنازير برية في غابة بولون؟». كان نابليون من كورسيكا، حيث كان صيد الخنازير البرية رياضة كبرى. غير أنه بسؤاله عن وجود خنازير برية في إحدى حدائق باريس كان يفضح نفسه كشخص ريفي يكاد يكون أخرق. غير أن تاليران لم يضحك، ولكنه لم يستطع أن يقاوم نكتة عملية على حساب الرجل الذي كان سيده في السياسة، وإن لم يكن كذلك في الدم والنبالة، إذ أن تاليران كان سليل أسرة أرستقراطية قديمة. وهكذا ردّ على سؤال نابليون: «إنها قليلة جداً أيها الجنرال، ولكنني أجرؤ على القول إنك ستعثر على واحد منها».

وتم ترتيب الأمر على أساس أن نابليون سيصل إلى بيت تاليران في السابعة من صباح اليوم التالي، حيث يمضي صبيحة ذلك اليوم ويتم «صيد الخنازير البرية» بعد الظهر. وطيلة الوقت لم يتحدث الجنرال المتحمس إلاَّ عن صيد الخنازير. وفي تلك الأثناء، كان تاليران قد أرسل خدمه إلى السوق لشراء خنزيرين أسودين ضخمين وأخذهما إلى تلك الحديقة الكبرى.

وبعد الغداء، انطلق الصيادون وكلابهم إلى غابة بولون. وعند إشارة سرية متفق عليها، أطلق الخدم أحد الخنزيرين. فصاح نابليون بفرح: «أرى خنزيراً برياً»، ثم قفز على حصانه ليبدأ بالمطاردة. وتخلف عنها تاليران. واستغرق الأمر نصف ساعة من القفز في الحديقة حتى تم

الإمساك بالخنزير «البري» في آخر الأمر. غير أن أحد مساعدي نابليون اقترب منه في لحظة الانتصار، وكان يعرف أن ذلك الحيوان لا يمكن أن يكون خنزيراً برياً، ويخشى من أن يصبح الجنرال موضع السخرية إذا انكشفت القصة، وقال لنابليون: «سيدي، إنك تدرك طبعاً أن هذا الحيوان ليس برياً، بل هو خنزير عادي».

فاستشاط نابليون غضباً، وانطلق على حصانه مسرعاً نحو منزل تاليران. وأدرك في الطريق أنه سيصبح موضوعاً لنكت كثيرة، وأن الانفجار على تاليران سيجعل نابليون موضع سخرية أكثر. فمن الأفضل أن يريه حسّ دعابة. ومع ذلك فإنه لم يحسن تغطية سخطه.

وقرر تاليران أن يهدىء من ذات نابليون الجريحة. فطلب منه أن لا يذهب إلى باريس، بل إلى الحديقة مرة أخرى للصيد، حيث توجد أرانب كثيرة هناك، وأن صيدها كان من الهوايات المفضلة لدى لويس السادس عشر، يزجي فيها أوقات فراغه. بل عرض تاليران أن يقدم لنابليون مجموعة من البنادق التي كانت تخص لويس. وبكثير من الملق والتزلف أقنع نابليون بالموافقة على الصيد.

واتجه الموكب نحو الحديقة في المساء المتأخر. وفي الطريق قال نابليون لتاليران: «أنا لست لويس السادس عشر. وبالتأكيد لن أستطيع أن أقتل أرنباً واحداً». ومع ذلك، ولسبب غريب بما فيه الكفاية، كانت الحديقة تعجّ بالأرانب، فقتل نابليون خمسين منها على الأقلّ، وتغيّر مزاجه من الغضب إلى الرضا. غير أنه في نهاية حفلة الصيد الصاخبة هذه، اقترب منه المساعد نفسه وهمس في أذنه: «في الحقيقة يا سيدي، لقد بدأت أعتقد أن هذه ليست أرانب برية، وإني لأشك في أن ذلك النذل، تاليران، قد رتّب نكتة أخرى على حسابنا». (وكان المساعد على حق، ذلك أن تاليران كان في الحقيقة قد أعاد خدمه إلى السوق، حيث اشتروا عشرات الأرانب، وأطلقوها من ثم في غابة بولون).

فركب نابليون حصانه وانطلق مسرعاً لا يلوي على شيء عائداً إلى

باريس مباشرة. وهدد تاليران بعد ذلك وحذره من إخبار أي شخص بما حدث؛ فإذا أصبح نابليون موضع السخرية في باريس، فسوف تنفتح على تاليران أبواب جهنم.

واستغرق الأمر شهوراً حتى استطاع نابليون أن يثق بتاليران مرة أخرى. ولم يغفر له بشكل كلي إذلاله إياه.

التفسير

إن رجال الحاشية يشبهون السحرة. فهم يلعبون بالمظاهر على نحو مخادع. فلا يَدَعون مَنْ حولهم يرون إلاَّ ما يريدونهم أن يروه. ومع وجود مثل هذا القدر الكبير من الخداع والتلاعب، فإن من الجوهري أن تمنع الناس من رؤية حيلك والاطلاع على براعتك في المكر وخفة اليد.

وكان تاليران بشكل طبيعي هو الساحر الأكبر في فن تصرف رجال الحاشية. ولولا مساعد نابليون لأفلت تاليران تماماً في عملية إرضاء سيده، وفي ترتيب نكتة على حساب الجنرال في الوقت نفسه. ولكن عمل رجل الحاشية فن ذكي خفي معقد. غير أن تجاهل المصايد والأخطاء غير المقصودة يمكن أن يدمّر أفضل أنواع الخدع. فلا تخاطر أبداً بالتعرض للانكشاف في مناوراتك. وإياك أن تدع الناس يرون أساليبك وتدابيرك، لأن ذلك إن حدث فسوف تتغير مكانتك في أعين الناس على الفور، وتتحول من رجل حاشية ذي أساليب عظيمة إلى وغدٍ مُقْرِفٍ كريه. فاللعبة التي تمارسها دقيقة وحساسة. فطبّق عليها أقصى ما لديك من اهتمام بتغطية حيلك الماكرة. ولا تدع سيدك يكشف قناعك أبداً.

القانون

25

أَعِدْ تشكيل نفسك

الحكم

لا تقبل الأدوار التي يفرضها أو يدسّها عليك المجتمع. وأعد تشكيل نفسك بتكوين هويّة جديدة يكون من شأنها أن تكسب الاهتمام، ولا تشعر الجمهور بالسأم أو الملل. وكن السيد المسيطر على صورتك بدلاً من أن تترك الآخرين يحددونها لك. وأدخل في إشاراتك وأعمالك العلنية تدابير مفاجئة لافتة للنظر ـ وعندئذٍ يتسع نفوذك وتبدو صورتك أكبر من الحياة.

مراعاة القانون الأولى

أقام يوليوس قيصر أول المعالم البارزة في مجتمعه الروماني سنة 65 ق.م، عندما تسلم منصب **المحتسب**، الموظف المكلف بتوزيع المؤن من الحبوب والأشغال والألعاب العامة. وقد بدأ ظهوره في أعين عامة الناس بتنظيم سلسلة من المشاهد المرتبة باحترافٍ مُحْكَمٍ بعناية وبتوقيت جيد ـ كصيد الحيوانات المتوحشة، واستعراضات المصارعة الغريبة المتهورة، والمباريات المسرحية. وفي مناسبات عديدة كان يدفع كلفة هذه المشاهد والاستعراضات من جيبه الخاص. وهكذا صار يوليوس قيصر بالنسبة للرجل العادي مرتبطاً ارتباطاً لا يمّحي بهذه الأحداث المحبوبة كثيراً. وبينما كان يرتقي ببطء ليحصل على منصب القنصل، استفاد من شعبيته بين الجماهير كأساس لسلطته. فقد خلق لنفسه صورة رجل الاستعراضات العامة العظيم.

وفي سنة 49 ق.م، كانت روما على حافة حرب أهلية بين الزعيمين المتنافسين، قيصر وبومبي. وفي ذروة التوتر، قام قيصر، مدمن المسرح، بحضور عرض مسرحي. وبعد ذلك تجول في الظلام، وهو غارق في التفكير، عائداً إلى معسكره على ضفاف روبيكون، النهر الذي يفصل إيطاليا عن بلاد الغال (فرنسا الحالية) حيث كان قيصر يقود حملاته. وكان الزحف بجيشه عبر نهر روبيكون عَوْداً إلى إيطاليا سيعني بدء حرب أهلية مع بومبي.

إن الإنسان الذي يريد أن يكوِّن ثروته في عاصمة العالم القديم هذه [روما]، يتعيّن عليه أن يكون حرباء، في قابليّته لأن يعكس ألوان البيئة المحيطة به –ومثل بروتيوس في قابليته لاتخاذ كل شكل وهيئة. وعليه أن يكون طريًا، مرنًا، متزلّفًا، متقرّبًا، وغامضًا، ووضيعًا في غالب الأحيان، وغدّارًا في أحيان أخرى، يخفي على الدوام جزءًا من معرفته، وينهمك في لهجة صوت واحدة، ويتقن التحكم في سحنته، وقادرًا على أن يكون باردًا كالثلج في حين يكون كل شخص آخر نارًا مشتعلة؛ وإن كان لسوء الحظ غير متدين في قلبه –وهذا شيء مألوف عند من يملك المتطلبات الواردة أعلاه– فعليه أن يبقي الدين في ذهنه، أي ظاهرًا على ملامح وجهه، وعلى شفتيه، وفي سلوكه؛ وعليه أن يتألّم بصمت وهدوء إن كان رجلاً شريفًا وهو يعرف ضرورة

ممارسته لخطيئة النفاق، وإن أي رجل تكره روحه مثل هذه الحياة يتعين عليه أن يغادر روما، ويبحث عن حظه وثروته في مكان آخر. ولا أدري إن كنت أمتدح نفسي أم ألتمس الأعذار، ولكنني من كل تلك الصفات كنت أمتلك واحدة فقط، هي المرونة.

مذكراتي

جيوفاني كازانوفا

1798-1725

وأمام ضباط أركانه ناقش قيصر الأمر من جانبيه معاً، مشكّلاً الخيارات كأنه ممثل على المسرح، وسلف سابق لهاملت. وأخيراً، ومن أجل إنهاء مناجاته الذاتية، أشار إلى شبح كان مظهره يبدو بريئاً على حافة النهر ـ وهو جندي فارع الطول كان ينفخ نفيراً في بوق، ثم يعبر الجسر فوق نهر روبيكون ـ ثم أعلن: «دعونا نقبل هذا كإشارة من الآلهة، ونتبعهم إلى حيث يشيرون، للانتقام من أعدائنا الغدّارين. سبق السيف العَذْل». وقد تحدث بهذا كله بطريقة تَنَبُّئِيَّة ودراميّة مفاجئة، وهو يشير إلى النهر وينظر إلى ضباطه في عيونهم مباشرة. كان يعرف أن دعم أولئك الضباط له لم يكن أكيداً. ولكن خطابه غلبهم على أمرهم، بإشعارهم بأهمية هذه اللحظة، وبالحاجة إلى انتهاز الفرصة واستغلال الزمن. ولو كان الخطاب واقعياً أكثر أو اعتيادياً لما كان له المفعول نفسه. وهكذا التف الضباط حول قضيته. فعبر قيصر وجيشه نهر روبيكون، وعند حلول العام التالي كان بومبي قد اندحر؛ مما جعل قيصر دكتاتور روما.

وفي فن الحرب، كان قيصر دائماً يؤدي دور القائد بِحَيَوِيَّةٍ بالغة. فكان خيّالاً بارعاً كأي واحد من جنوده. وكان يتفاخر بالتفوق عليهم في الأعمال التي تتطلب شجاعة وجَلَداً وقدرة على التحمل. فكان يدخل المعركة على صهوة أقوى جواد، بحيث يراه جنوده في غمرة القتال يَحُثُّهُمْ ويضع نفسه دائماً في الوسط، كرمز شبه إلهي للسلطة، وكنموذج لهم يُحْتَذَى. ومن بين كل جيوش روما، كان جيش قيصر هو الأشد إخلاصاً وولاء. فكان جنوده، كالناس العاديين الذين كانوا يحضرون حفلاته واستعراضاته، يتعلقون به وبقضيته.

بعد اندحار بومبي، تنامت الاستعراضات الممتعة في حجمها بصورة لم تشهد لها روما مثيلاً من قبل. وصارت سباقات العربات أكثر روعة، ومعارك المتصارعين أكثر لفتاً للأنظار برهبتها، وراح قيصر ينظم مبارزات حتى الموت بين النبلاء الرومان. ونظم معارك بحرية تمثيلية

هائلة على بحيرات اصطناعية. وكانت المسرحيات تُمَثَّلُ في كل حيّ روماني. وبُنِيَ مسرح ضخم جديد ينحدر بشكل مفاجىء من على الصخرة التاربيّة. واحتشدت الجماهير من جميع أنحاء الإمبراطورية لتشهد هذه الأحداث. وامتلأت جوانب الطرقات المؤدية إلى روما بخيام الزوار. وفي سنة 45 ق.م، وقَّتَ قصيرُ دخوله إلى المدينة بحيث يحدث أقصى قدر ممكن من التأثير والمفاجأة، فعاد إلى روما بكليوباترا، بعد حملته المصرية. ونظم مشاهد عامة أكثر إفراطاً في البذخ والفخفخة.

وكانت هذه الأحداث أكثر من تدابير لإلهاء الجماهير. فقد وسعت إحساس العامّةِ بشخصية قيصر بصورة مفاجئة، وجعلته يبدو أكبر من الحياة. وكان قيصر سيّد صورته العامّة التي كان على وعي دائم بها. فعندما كان يظهر أمام الحشود، كان يرتدي أثوابه الحمراء اللافتة للأنظار. إذ لم يكن يريد أن يبعده أحد من مركز المسرح إلى مؤخرته. وكان مغروراً بشكل كبير ومعروف حول مظهره ـ فقد قيل إن أحد أسباب استمتاعه بتكريم مجلس الشيوخ والشعب أنه في هذه المناسبات كان يستطيع أن يرتدي إكليل غار يخفي صلعه. وكان قيصر خطيباً مِصْقَعاً. فكان يعرف كيف يقول الكثير بكلمات قليلة. وكان يعرف بحدسه اللحظة التي ينهي فيها الخطاب ليترك أقصى قدر من التأثير. ولم يعجز أبداً عن تضمين حالات ظهوره العام مفاجأةً مّا ـ إعلاناً مباغتاً يزيد تلك المناسبات إثارة.

وكانت لقيصر شعبية هائلة في صفوف الشعب الروماني، فكرهه منافسوه وخافوا منه. وفي منتصف شهر آذار/ مارس من سنة 44 ق.م، أحاطت به مجموعة من المتآمرين بقيادة بروتوس وكاشيوس في مجلس الشيوخ وطعنوه حتى الموت. غير أنه حتى في موته احتفظ بإحساسه بالدراما. فسحب أعلى ردائه فوق وجهه، وترك الجزء السفلي ينسدل على ساقيه، مما سمح له أن يموت ميتةً كريمة وجثمانه مغطى. وحسب رواية المؤرخ الروماني سويتونيوس كانت كلماته الأخيرة لصديقه القديم

بروتوس، الذي كان على وشك توجيه طعنة أخرى له، باللغة اليونانية، وكأنه يتدرب لإنهاء مسرحية: «وأنت أيضاً، يا بنيّ؟».

التفسير

كان المسرح الروماني حدثاً للجماهير، تحضره حشود لا يمكن تصورها اليوم. فكان المتفرجون، المجتمعون في صالات هائلة، يتسلون بمسرحيات هزلية صاخبة، أو يتأثرون بالمآسي العالية. وكان يبدو أن المسرح يحتوي على جوهر الحياة بشكلها الروائي المركّز. فكان له، كالطقوس الدينية، تأثير فوري قوي على الرجل العادي.

ولعل يوليوس قيصر كان أول شخصية عامة تفهم العلاقة الحيوية بين السلطة والمسرح. وكان ذلك بسبب اهتمامه المهووس بالدراما. فتصاعد بهذا الاهتمام عن طريق جعل نفسه ممثلاً ومخرجاً على مسرح العالم. فكان يتلو كلماته وكأنها نصٌّ روائي. وكان يؤشر ويتحرك وسط الجمهور، بإحساس دائم بمظهره وكيف يبدو أمام متفرجيه. فكان يُضَمّن ذخيرته الروائية مفاجآت، فيبني في خطاباته صراعاً درامياً يجعل ظهوره في مكان سنة يشبه الدخول إلى المسرح. وكانت إشاراته من الاتساع بحيث يفهمها الرجل العادي على الفور.

لقد وضع قيصر المثال النموذجي لكل الزعماء وأصحاب السلطة. وعليك أن تتعلم مثله أن تضخم أفعالك من خلال تقنيّات المسرح، مثل المفاجأة، وإثارة الترقب المتوتر أو اللهفة، وخلق التعاطف، والتحديد الرمزي. ومثله أيضاً، يجب عليك أن تكون واعياً بجمهور مستمعيك ــ وبما يسرهم وبما يثير سأمهم وضجرهم ــ . وعليك أن تتدبر وضع نفسك في المركز كي تلفت الانتباه، وكي لا تتراجع إلى مؤخرة المسرح بأي ثمن.

مراعاة القانون الثانية

في سنة 1831، قامت امرأة شابة تدعى أورورا دوبان دوديفان بترك

زوجها وعائلتها في المقاطعات وانتقلت إلى باريس. كانت تريد أن تكون كاتبة؛ وقد شعرت أن الزواج أسوأ من سجن، لأنه لم يترك لها الوقت ولا الحرية لمتابعة عاطفتها المشبوبة. ففي باريس أرادت أن تؤسس استقلالها وتتدبر معيشتها بالكتابة.

غير أنها بعد وقت قصير من وصولها إلى العاصمة، كانت مضطرة إلى مواجهة بعض الحقائق القاسية. فللحصول على أي قدر من الحرية في باريس، ينبغي أن يكون معك مال. والمال بالنسبة للمرأة لا يأتي إلاّ عن طريق الزواج أو البغاء. ولم تستطع أي امرأة قطّ أن تقترب من أمر تدبير معيشتها بالكتابة. فالنساء كنّ يكتبن على سبيل الهواية، بدعم من أزواجهن أو من إرثٍ يَرِثْنَهُ. والواقع أنه عندما عرضت دوديفان كتابتها على أحد المحررين قال لها: «يجب عليك أن تنتجي أطفالاً يا سيدتي، وليس أدباً».

كان واضحاً أن دوديفان قد جاءت إلى باريس لتحاول المستحيل. غير أنها في آخر الأمر ابتكرت خطة استراتيجيةٍ لعمل ما لم تعمله امرأة قبلها على الإطلاق.. استراتيجية إعادة خلق نفسها بصورة كاملة، بتلفيق صورة عامة لنفسها من صنعها الخاص. ففي السابق كان يُفْرَضُ على النساء الكاتبات دور جاهز، هو دور فنانة من الدرجة الثانية، تكتب معظم مؤلفاتها للنساء الأخريات. فقررت دوديفان أنه إن كان لا بدّ لها من دور تلعبه، فإنها ستقلب اللعبة رأساً على عقب: ستلعب دور رجل.

وفي سنة 1832، قبل أحد الناشرين قصتها الكبرى الأولى المعنونة: **إنديانا**. واختارت أن تنشرها تحت اسم مستعار هو «جورج صاند». فافترضت باريس كلها أن الكاتب الجديد المثير للإعجاب هو ذَكَر. وكانت دوديفان ترتدي ملابس الرجال أحياناً قبل أن تخلق «جورج صاند» (إذْ إنها كانت دائماً تجد القمصان الرجالية وسراويل الركوب القصيرة مريحة لها أكثر من غيرها). وعندما صارت شخصية عامة، أخذت تبالغ في هذه الصورة. فأضافت إلى خزانة ثيابها معاطف رجالية

طويلة، وقبعات رمادية، وجزمات ثقيلة وربطات عنق مزركشة مُغَنْدَرَة. وشرعت في تدخين السيجار، وفي التعبير عن نفسها في الحديث كرجل، دون أن تخشى من السيطرة على الحديث، أو استعمال كلمة نابية.

وفُتِنَ الناس بهذه الكاتبة الغريبة «الذكر/الأنثى». وعلى عكس الكاتبات الأخريات، وجدت صاند نفسها مقبولة في طغمة من الفنانين الذكور. وراحت تتعاطى معهم الخمر والتدخين، بل أقامت علاقات غرامية مع أشهر فناني أوروبا ـ آلفريد دي موسيه، وفرانزليست، وفردريك شوبان. وكانت هي التي تبادر بالمغازلة، وكذلك بالهجر. وكانت تتحرك كما تشاء.

وفَهِمَ الذين عرفوا صاند أن شخصيتها الذكورية كانت تحميها من عيون الناس المتلصصة. وعندما كانت تخرج إلى العالم، كانت تستمتع بلعب ذلك الدور إلى أقصى حد؛ وإذا خلت إلى نفسها كانت تظل هي هي. كما أدركت أن شخصية «جورج صاند» قد تصبح تافهة مبتذلة أو يسهل التنبؤ بها. ولتجنب ذلك راحت تعمد إلى تغيير الشخصية التي خلقتها بين الحين والآخر بصورة مفاجئة. فبدلاً من إقامة العلاقات مع المشاهير، كانت تتدخل في السياسة على نحو متطفل، وتقود المظاهرات، وتلهم الطلبة العصيان. فلم تسمح لأحد أن يملي عليها حدود الشخصية التي خلقتها. وبعد زمن طويل من موتها، وبعد أن كفّ معظم الناس عن قراءة قصصها، ظلت التحركات المسرحية لتلك الشخصية الأكبر من الحياة تفتن الناس وتلهمهم.

التفسير

طيلة الحياة العامة لجورج صاند كان لدى معارفها والفنانين الآخرين الذين قضوا وقتاً في صحبتها شعور بأنهم أمام رجل. ولكنها في يومياتها ومع أقرب الأصدقاء إليها، مثل غوستاف فلوبير كانت تعترف بأن لا رغبة لديها في أن تكون رجلاً، ولكنها تلعب دوراً للاستهلاك

العمومي. فما كانت تريده في الحقيقة هو القدرة على تقرير شخصيتها والبتّ فيها بنفسها. وقد رفضت القيود التي كان المجتمع سيفرضها عليها. غير أنها لم تحصل على نفوذها بكونها نفسها، بل خلقت شخصية تستطيع أن تكيفها باستمرار حسب رغباتها، شخصية اجتذبت الاهتمام وأعطتها حضوراً.

إفهم هذا: يريد العالم أن يوكل إليك دوراً في الحياة. وبمجرد أن تقبل الدور تحكم على نفسك بالإخفاق. إذ أن سلطتك محدودة بالقَدْر الضئيل المخصص للدور الذي اخترته أو فُرِضَ عليك أن تؤديه. غير أن الممثل، من جهة أخرى، يلعب أدواراً كثيرة. فتمتع بتلك القوة السريعة التقلب، وإذا كانت بعيدة عن متناولك، فلا أقل من أن تلفق هوية جديدة تصنعها بنفسك، هوية لا تقيدها حدود يعيّنها لك عَالَمٌ حاسدٌ أو ساخط. فهذا النوع من الفعل المتحدي هو بروميثي (نسبة إلى بروميثيوس، أو هرقل الذي تحدى الآلهة وأعطى سر النار للبشر)، فهو يجعلك مسؤولاً عن صنيعتك التي خلقتها بنفسك.

إن هويتك الجديدة ستحميك من العالم لأنها بالضبط ليست «أنت». بل هي زيٌّ ترتديه وتخلعه. ولا حاجة بك لأخذها على محمل شخصي. وهويتك الجديدة تجعلك متفرداً منفصلاً، وتعطيك حضوراً مسرحياً. فالجالسون في الصفوف الخلفية يرونك ويسمعونك. أما الذين في الصفوف الأمامية فيتعجبون من وقاحتك وصلفك.

ألا يتحدث الناس في المجتمع عن رجل بصفته ممثلاً عظيماً؟ هم لا يقصدون بذلك أنه يشعر، بل إنه يبدع في استثارتهم رغم أنه لا يشعر بشيء.

(دنيس ديدرو، 1713–1784)

مفاتيح السلطة

إن الشخصية التي يبدو أنك قد ولدت بها ليست بالضرورة أنت.

فبالإضافة إلى الخصائص التي ورثتها فقد ساعد أصدقاؤك وأترابك في تشكيل شخصيتك. والمهمة البروميثيوسية الثقيلة على كاهل الأقوياء هي السيطرة على العملية، ومنع الآخرين من تقييدهم وقولبتهم. أَعِدْ تصنيع نفسك كشخصية قوية. وينبغي أن يكون عملك في تشكيل نفسك كالطين واحداً من أعظم وظائف حياتك وأكثرها مدعاة للمسرة. فهذا العمل يجعلك من حيث الجوهر فناناً ـ فناناً تخلق نفسك.

والواقع أن فكرة خلق الذات تأتي من عالَم الفن. فَعَلَى مدى آلاف السنين، كان الملوك وكبار رجال الحاشية فقط هم الذين لديهم الحرية لتشكيل صورتهم العامة، والبت في هويتهم الخاصة بهم. وبالمثل كان الملوك وأغنى النبلاء (اللوردات) هم وحدهم الذين يستطيعون تأمل صورهم الذاتية في الفن وتغييرها عن وعي وقصد. أما باقي أبناء البشرية فيلعبون الدور المحدود الذي يطلبه منهم المجتمع، وليس لديهم أي وعي يذكر بذواتهم.

ويمكن اكتشاف تحول في هذه الحالة في لوحة فاليسكويز المعنونة: **المعبودون**، المرسومة سنة 1656. إذ يظهر الفنان على يسار اللوحة، واقفاً أمام الرسم أثناء عملية خلقه له، ولكن ظَهْرَ الرسم متجه إلينا ـ فلا نستطيع أن نراه. وإلى جانبه تقف أميرة ومرافقوها وأحد أقزام البلاط، وكلهم يتفرجون عليه وهو يعمل. أما الناس الواقفون لكي يرسمهم الفنان فهم غير مرئيين بصورة مباشرة، ولكننا نستطيع أن نراهم في انعكاسات ضئيلة في مرآة على الجدار الخلفي ـ ملك إسبانيا وملكتها اللذان يجب أن يكونا جالسين في مكانٍ مّا في المقدمة، خارج الصورة.

ويمثل الرسم تغيراً مفاجئاً في الطاقات الفعالة للسلطة، والقدرة على البتِّ في مركز المرء في المجتمع، لأن فاليسكويز، الفنان، له موقع أهم وأبرز من موقع الملك والملكة. وبمعنىً مّا فإنه أقوى منهما، لأنه هو المسيطر على الصورة، **صورتهما**. ذلك أنه لم يعد يرى نفسه الفنان المستعبَد التابع. بل أعاد صنع نفسه كرجل ذي سلطة. والحق أن الفنانين

والكتاب كانوا ـ بعد الأرستقراطيين ـ أول الناس الذين تلاعبوا علناً وبصورة مكشوفة بصورتهم في المجتمع الغربيّ، وتلاهم بعد ذلك الشباب المتغندرون والبوهيميون الذين لا يقيمون وزناً للأعراف الاجتماعية. أما اليوم، فإن مفهوم خلق الذات قد تسلل إلى باقي المجتمع، وصار مثالاً يتطلعون إليه. ومثل فاليسكويز، يجب أن تطلب لنفسك القوة أو السلطة للبت في موقعك في اللوحة، وأن تخلق صورتك بنفسك.

وأول خطوة في عملية خلق الذات هي الوعي بالذات، أي وعيك بذاتك كممثل، والسيطرة على مظهرك وعواطفك. وكما قال ديدرو، فإن الممثل الرديء، هو الممثل المخلص دائماً. فالناس الذين يضعون قلوبهم على أكفهم ويخرجون بها علناً إلى المجتمع هم متعِبون ومحرِجون. فعلى الرغم من إخلاصهم، يصعب أخذهم على محمل الجدّ. فالذين يبكون علانية قد يستدرجون العطف. ولكن العطف سرعان ما يتحول إلى تهكم وسخط على هواجسهم الذاتية المتسلطة، إذْ نشعر أنهم يبكون للحصول على الاهتمام، ويميل جزء خبيث فينا إلى حرمانهم من تلبية تلك الرغبة.

فالممثلون الجيدون يسيطرون على أنفسهم بشكل أفضل. إذ أنهم يستطيعون أن **يمثلوا** الإخلاص والعواطف القلبية، ويستطيعون أن يفتعلوا دمعة ونظرة رحيمة كلما شاؤوا، ولكنهم غير مضطرين للشعور بذلك. فهم يخرجون العاطفة من أجوافهم بشكل يستطيع الآخرون فهمه. فتمثيل الطريقة قاتل في العالم الحقيقي. إذ لا يستطيع أي حاكم أو قائد يمثل دوره إن كان مضطراً إلى جعل كل العواطف التي يظهرها حقيقية. فتعلَّم ضبط النفس إذن. واعتمد مطاطية الممثلين، الذين يستطيعون أن يقولبوا وجوههم على قياس العاطفة المطلوبة.

والخطوة الثانية في عملية خلق الذات هي تنويع على استراتيجية

جورج صاند: خلق شخصية تعلق في الذاكرة، وتفرض الانتباه، وتقف أعلى من الممثلين الآخرين على المسرح. ولقد كانت هذه هي اللعبة التي مارسها أبراهام لينكولن. كان يعرف أن الرجل الريفي العاديّ البسيط هو النوع الذي لم يسبق لأميركا أن انتخبته رئيساً من قبل أبداً ولكنها ستبتهج بانتخابه. ورغم أن كثيراً من هذه الصفات كانت ظاهرة فيه بشكل طبيعي، فقد ضخّمها وأبرزها: القبعة والملابس واللحية (فلم يكن هناك رئيس بلحية من قبل). وكان لينكولن أيضاً أول رئيس يستخدم الصور الفوتوغرافية لنشر صورته، مما ساعده على خلق أيقونة «الرئيس العادي البسيط».

غير أن المسرحية تحتاج إلى ما هو أكثر من مظهرٍ مثيرٍ للاهتمام، أو لحظة موقف بارز بمفردها. فالمسرحية يستغرق حدوثها وقتاً، لأنها واقعة تتكشف أبعادها تدريجياً. فإيقاعها وتوقيتها لهما أهمية حساسة. ذلك أن هُودِيني، على سبيل المثال كان يستطيع أن يستكمل تخليص نفسه في ثوانٍ أحياناً، غير أنه كان يطيلها إلى دقائق، ليجعل جمهوره يتصبب عرقاً.

إن مفتاح إبقاء المتفرجين منفعلين متلهفين على حافات مقاعدهم هو جعل الأحداث تتكشف ببطء، ثم جعلها تتسارع في اللحظة المناسبة. حسب نمط وإيقاع تتحكم بهما أنت. فالحكام العظام، من نابليون إلى ماوتسي ـ تونغ، قد استخدموا التوقيت المسرحي لمفاجأة جمهورهم وإلهائه. وقد كان فرانكلين ديلانو روزفلت، يفهم أهمية تدبير أحداث سياسية حسب ترتيب وإيقاع معيَّنين.

وفي موسم انتخاباته الرئاسية في سنة 1932، كانت الولايات المتحدة في وسط أزمة اقتصادية رهيبة. فالمصارف كانت تفلس بتواترٍ مفزع. وبعد وقت قصير من فوز روزفلت في الانتخابات، تراجع إلى ملتجأ منعزل. ولم يقل شيئاً عن خططه أو تعييناته الوزارية. بل رفض أن

يلتقي بالرئيس الذي سيخلفه، هربرت هوڤر، لمناقشة عملية نقل السلطة. وعندما حان وقت تدشين رئاسة روزفلت، كان البلد في حالة من القلق الشديد.

وفي خطابه الافتتاحي، غيّر روزفلت إيقاع السرعة. فألقى خطاباً قوياً أوضح فيه أنه ينوي أن يقود البلد في اتجاه جديد تماماً، وأزاح بشكل كاسح كل إشارات سابقيه المتخوفة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً راحت إيقاعات خُطَبِه، وقراراته العامة، وتعييناته الوزارية، وتشريعاته الجريئة تتكشف بمعدلٍ سرعتُهُ لا تصدَّق. وصارت الفترة التي تلت بداية رئاسته تعرف باسم «المائة يوم». إذ أن نجاحها في تغيير المزاج العام في البلد قد نجم جزئياً عن إيقاع روزفلت البارع واستخدامه للتناقض المسرحي المفاجيء. فكان يثير ترقب مستمعيه وتلهفهم، ثم يفاجئهم بسلسلة من الإشارات الجريئة التي كانت تبدو أضخم وأكبر تأثيراً لأنها كانت تأتي من الفراغ. يجب عليك أن تتعلم كيف تنظم إيقاع الأحداث بطريقة مماثلة، فلا تكشف أوراقك كلها دفعة واحدة، بل تكشفها بطريقة تزيد في تأثيرها الدراميّ المفاجيء.

فالمسرحية الجيدة لا يقتصر تأثيرها على تغطية حشد من الخطايا، بل إنها تستطيع كذلك أن تُرْبِكَ عدوك وتخدعه. فأثناء الحرب العالمية الثانية، كان الكاتب المسرحي الألماني برتولت بريخت يعمل في هوليود ككاتب للمشاهد السينمائية. وبعد الحرب استدعي للمثول أمام لجنة مكافحة النشاط المعادي لأميركا التابعة للكونغرس الأميركي بسبب تعاطفه المفترض مع الشيوعية. وكان الكتاب الآخرون الذين تم استدعاؤهم للشهادة يخططون لإهانة أعضاء اللجنة بموقف عاطفي غاضب. وكان بريخت أعقل منهم. فقد قرر أن يتلاعب باللجنة كأنه يعزف على كمان. فيفتن أعضاءها ويخدعهم في الوقت نفسه. فقام بمراجعة أجوبته بعناية؛ وجاء معه ببعض المرتكزات، ولا سيما سيجار راح ينفخ دخانه وهو يعلم أن رئيس اللجنة يحب السيجار. وشرع بالفعل

يخادع اللجنة بأجوبة مصنّعة جيداً، غامضة، ومضحكة، وذات حدّين. وبدلاً من تقريع غاضب نابع من القلب، راح يداورهم بإنتاج مسرحي كان قد دبّره مسبقاً، فتركوه حراً طليقاً تماماً.

وتشمل التأثيرات المسرحية في ذخيرتك «البادرة الكريمة». وهي عمل في لحظة الذروة يرمز لانتصارك أو جرأتك. فلقد كان العبورُ الدراميُّ لنهر روبيكون **بادرةً كريمةً مفتعلة** من قيصر ـ حركة بهرت الجنود وأعطت قيصر أبعاداً بطولية. وعليك أيضاً أن تقدر أهمية مداخل المسرح ومخارجه. فعندما التقت كليوباترا بقيصر للمرة الأولى في مصر، وصلت إليه ملفوفة في سجادة مطويّة رتبت أمر فَرْشِها عند قدميه. كما أن جورج واشنطن ترك السلطة مرتين بتبجّح وضجيج (أولاً بصفته جنرالاً، ثم بصفته رئيساً رفض أن يحكم فترة ولاية ثالثة)، فأظهر أنه يعرف كيف يجعل اللحظة شيئاً محسوباً وهاماً من حيث التوقيت والرمز المليء بالمعاني. إن عمليات دخولك وخروجك ينبغي تخطيطها وتصنيعها بالدقة نفسها.

وتذكَّر أن الإفراط في التمثيل قد يعطي نتيجة عكسية ـ فهو طريقة أخرى لصرف جهد مفرط في محاولة لفت الأنظار أو اجتذاب الاهتمام. فقد اكتشف الممثل ريتشارد بيرتون في وقت مبكر من حياته العملية أنه بوقوفه ساكناً تماماً على المسرح كان يجذب الاهتمام لنفسه ويبعده عن الممثلين الآخرين. فمن الواضح أن ما تفعله ليس هو المهم، فالأهم منه هو الطريقة التي تفعله بها. فكياستك ولباقتك، وسكونك الطاغي على المسرح الاجتماعي لها تأثير أكثر من إفراطك في أداء دورك، وفي التحرك الزائد أكثر من اللازم.

وأخيراً: تعلَّم أن تؤدي كثيراً من الأدوار، وأن تكون ما يتطلبه منك مقتضى كل لحظة، وأن تكيف قناعك للحالة ـ وكن متقلباً في الوجوه التي ترتديها، أي البس لكل حالة لبوسها. فقد كان بسمارك يتقن هذه اللعبة تماماً. فكان أمام الأحرار واحداً منهم، وعند الصقور صقراً.

فلم يكن من الممكن فهمه. وما لا يمكن فهمه لا يمكن استهلاكه.

صورة:
إله البحر الإغريقي بروتيوس. كانت
قوته تنبع من قدرته على تغيير شكله كما
يشاء بحيث يكون ما تتطلبه منه اللحظة التي هو فيها.
وعندما حاول مينيلاوس، أخو آغا ممنون، أن يقبض
عليه، حوّل بروتيوس نفسه إلى أسد، ثم إلى أفعى، وفهد،
وخنزير بري، وماءٍ جارٍ، وأخيراً إلى شجرة كثيفة الأوراق.

الشاهد: إعرف كيف تكون كل الأشياء لكل الناس، أي بروتيوس متكتماً: عالماً بين العلماء، وقدّيساً بين القدّيسين. فهذا هو فنّ كسب الجميع إلى جانبك، إذْ أنّ شبيه الشيء منجذب إليه. لاحظ الأمزجة والطباع وكيّف نفسك لمزاج كل شخص تلتقيه. وتتبع طبعَ الجادّ والمرح، كلاً في دوره، مغيّراً مزاجك بشكل خفي حريص، مع الشجيّ ومع الخَلِيّ. *(بلتازار غراسيان، 1601-1658).*

الانقلاب

لا يوجد في الحقيقة انقلاب في هذا القانون الهام: فالمسرح الرديء هو مسرح رديء. فحتى الظهور بالمظهر الطبيعي يتطلب فناً ـ وبكلمة أخرى: تمثيلاً. فالتمثيل الرديء لا يخلق سوى الإحراج. وبالطبع ينبغي أن لا **تفرط** في التمثيل ـ تجنّب الإشارة المتكلفة المفتعلة. ولكن ذلك مسرح رديء على أية حال، ما دام ينتهك القوانين المسرحية المضادة للإفراط في التمثيل التي ظلت سارية المفعول قروناً طويلة. فمن حيث الجوهر الأساسي لا يوجد انقلاب لهذا القانون.

القانون

26

ابقِ يديك نظيفتين

الحكم

يجب أن تبدو مثالاً للكياسة والكفاءة، فيداك لا تتلوثان قط بالأخطاء والأفعال الشنعاء. فحافظ على مثل هذا المظهر النظيف بلا بُقَع باستخدام الآخرين ككباش فداء، ومخالب قط للتغطية على تورطك.

القسم الأول: اخْفِ أخطاءك ـ
احتفظ بكبش فداء قريب ليتلقى اللوم

إن نظافة اسمنا وسمعتنا تعتمد على ما نخفيه أكثر من اعتمادها على ما نكشفه. فالجميع يخطئون. ولكن البارعين فعلاً يتدبرون أمر إخفاء أخطائهم، ويضمنون وقوع اللوم على شخص آخر. فيجب إبقاء كبش فداء جاهز وقريب دائماً لمثل هذه اللحظات.

مراعاة القانون الأولى

في أواخر القرن الثاني الميلادي، وبينما كانت إمبراطورية هان الصينية القوية تنهار في بطء، برز القائد العظيم والوزير الإمبراطوري تسآو تسآو باعتباره أقوى رجل في البلد. وفي سعيه لتوسيع قاعدة سلطته وتخليص نفسه من آخر منافسيه، شرع في حملة للاستيلاء على السهل الأوسط ذي الأهمية الاستراتيجية الحيوية. وأثناء محاصرة مدينة هامة فيه، أخطأ خطأً طفيفاً في حساب توقيت وصول إمدادات الحبوب من العاصمة. وبينما كان ينتظر وصول الشحنة، شَحّت أقوات الجيش. واضطر تسآو تسآو إلى إصدار الأمر لرئيس لجنة التموين بتخفيض كميات الإعاشة.

وكان تسآو تسآو يمسك بزمام الجيش على نحو محكم، ويدير شبكة من المخبرين. وسرعان ما أبلغه جواسيسه بأن الرجال يتذمرون، ويشكون من كونه هو يعيش جيداً بينما هم أنفسهم لا يكادون يجدون ما

عدالة شِيلْم

أصابت محنةٌ عظيمةٌ مدينةَ شِيلْمْ ذات يوم. فقد قتل إسكافيٌّ المدينة واحدًا من زبائنه. فجيء به للمثول أمام القاضي الذي حكم عليه بالإعدام شنقًا. وعندما تُلي الحكم، نهض أحد رجال المدينة وصرخ: «اسمعني من فضلك يا سيادة القاضي – لقد حكمت بالإعدام على إسكافيّ المدينة! وهو الوحيد عندنا، فإن شنقته فمن يصلح أحذيتنا؟» فصرخ جميع أهالي شِيلْمْ «منْ؟ منْ؟» بصوت واحد. فهزّ القاضي رأسه موافقًا وأعاد النظر في حكمه، وقال: «يا أهل شِيلْمْ الطيبين، إن ما تقولونه صحيح. فبما أن لدينا إسكافيًا واحدًا، فإن تركه يموت خطأ في حق

يكفي لطعامهم. فلعل تسآو تسآو يحتفظ بالطعام لنفسه ـ هكذا راحوا يغمغمون. فلو انتشر التذمر فقد يجد تسآو تسآو نفسه يواجه تمرداً. وهكذا استدعى رئيس لجنة التموين إلى خيمته، وقال له:

«أود أن أطلب منك أن تعيرني شيئاً. ويجب أن لا ترفض»، فرد عليه رئيس لجنة التموين: «ما هو؟»، فقال تسآو تسآو: «أريد أن أستعير رأسك لأعرضه على الجنود». فصرخ الرئيس: «ولكنني لم أرتكب ذنباً!»، فقال تسآو تسآو وهو يتنهد: «ولكنني إذا لم أعدمك فسوف يحدث تمرد. فلا تحزن، لأنني سأرعى أسرتك بعد ذهابك». وعندما طُرِحَ الطلب بهذه الطريقة، لم يبق لرئيس لجنة التموين خيار، فاستسلم لمصيره، وتم قطع رأسه في ذلك اليوم نفسه. وعندما رأى الجنودُ رَأْسَهُ معروضاً على الملأ توقفوا عن التذمر. وقد كشف بعضهم ما وراء هذه الإشارة من تسآو تسآو، ولكنهم حافظوا على هدوئهم، لأن عنفه أذهلهم وأرعبهم. وقبلت غالبيتهم روايته عمّن يستحق اللوم، وهكذا فضلوا الإيمان بحكمته وعدالته بدلاً من قسوته وعدم كفاءته.

المجتمع. وبما أن في المدينة شخصين مختصين بإصلاح السطوح، فليُشْنَق أحدهما بدلاً من الإسكاف».

مجموعة قصص شعبية

تحرير ناثان أوسوبيل،

1948

التفسير

وصل تسآو تسآو إلى السلطة في وقت مضطرب للغاية. ففي غمرة الصراع على التفوق في إمبراطورية هان المتداعية، راح الأعداء يبرزون من جميع الجوانب. وقد تكشفت معركة السهل الأوسط عن صعوبة أكثر مما كان قد تصوره. وأثار نقص المال والمؤن قلقاً مستمراً. فلا عجب إن كان ـ تحت مثل هذا الضغط ـ قد نسي أن يطلب المؤن في الوقت المناسب.

وما أن اتضح أن ذلك التأخير كان غلطة حرجة حساسة، وأن الجيش كان يجيش بالعصيان، حتى صار تسآو تسآو أمام خيارين هما: الاعتذار وانتحال المعاذير، أو تقديم كبش فداء. وبما أنه كان يفهم أساليب عمل السلطة وأهمية المظاهر، فإنه لم يتردد لحظة واحدة. فنظر حوله بحثاً عن أنسب رأس، وقدمه ضحية على الفور.

إن وقوع الأخطاء بين الفينة والفينة أمر محتوم. فالعالم أصعب من أن يمكن التنبؤ به. غير أن ذوي السلطة لا تهلكهم الأخطاء التي يقعون فيها، بل الطريقة التي يعالجون بها تلك الأخطاء. فيتعيَّن عليهم، مثل الجراحين، أن يبتروا الورم بسرعة وبحركة نهائية حاسمة. فالأعذار والاعتذارات سلاح مغلول لا ينفع لهذه العملية الحسَّاسة والدقيقة؛ والأقوياء يتجنَّبونها. فبالاعتذار تفتح على نفسك كل أنواع الشكوك بكفاءتك، وبنواياك، وبأية أخطاء أخرى لعلك لم تعترف بها. فالمعاذير لا ترضي أحداً والاعتذارات تتعب الجميع وتشعرهم بالضيق. والخطأ لا يختفي بالاعتذار، بل يتعمَّق ويتعفَّن. فالأفضل أن يُسْتَأْصَلَ في الحال. فأبعد الأنظار عن نفسك، وركِّز الانتباه على كبش فداء ملائم قبل أن يتسنّى للناس الوقت للتفكير في مسؤوليتك، أو في احتمال نقص كفاءتك.

أفضِّل أن أخون العالم كله، على أن أدع العالم يخونني.

(الجسرال تسآو تسآو حوالي 155-220م)

مراعاة القانون الثانية:

ظل سيزار بورجيا يخوض الحملات أعواماً طويلة للسيطرة على أجزاء كبيرة من إيطاليا باسم والده، البابا آليكساندر. وفي سنة 1500 م، استطاع أن يستولي على رومانا، في إيطاليا الشمالية. وكانت المنطقة قد خضعت على مدى سنين لسلسلة من السادة الجشعين الذين نهبوا ثروتها لأنفسهم. وفي غياب الشرطة أو أي قوة تحفظ النظام، انحدرت إلى حضيض الخروج على القانون، بحيث خضعت مناطق بكاملها لحكم اللصوص والأسر المتناحرة. ولإقامة النظام، عيَّن سيزار نائباً عنه في قيادة المنطقة: روميرو دي أوركو، وكان «رجلاً قاسياً وقوياً ونشيطاً» حسب رواية نيقولو ماكيافيللي. ومنح سيزار دي أوركو سلطات مطلقة.

وبنشاط وعنف، أقام دي أوركو نظاماً للعدالة قاسياً وحشياً في

رومانا، وسرعان ما خلَّصها من معظم عناصرها الخارجة على القانون. ولكنه في غمرة حماسه تجاوز الحدود أحياناً. وبعد عامين سخط عليه السكان المحليون، بل كرهوه. وفي كانون الأول/ ديسمبر سنة 1502 م، اتخذ سيزار إجراءً حاسماً. ولكنه أعلم الناس أولاً أنه لم يوافق على أعمال دي أوركو القاسية والعنيفة، التي نبعت من طبيعة نائبه القاسية. ثم، في 22 كانون الأول/ ديسمبر سنة 1502، سَجَن دي أوركو في مدينة سيسينا، وفي اليوم التالي لعيد الميلاد صحا أهل المدينة ليجدوا منظراً غريباً في وسط الساحة العامة: جسد دي أوركو بلا رأس، مرتدياً بذلة باذخة وعلى الكتفين رداءٌ أرجواني، والرأس مغروس إلى جانبها على عمود، بينما وضعت السكين الدامية ونطع الجلاد بجانب الرأس. وكما اختتم ماكيافيللي تعليقه على المسألة، فإن «وحشية هذا المشهد تركت الناس مشدوهين وراضين في الوقت نفسه».

التفسير

كان سيزار بورجيا أستاذاً يتقن لعبة السلطة. وكان دائماً يخطِّط مسبقاً لعدة تحركات، فنصب لخصومه أدهى المصايد. ولذا كرَّمه ماكيافيللي ورفعه فوق الآخرين جميعاً في كتابه: **الأمير**. وقد تنبأ سيزار بالمستقبل بوضوح مذهل في رومانا. إذْ لن يعيد النظام إلى المنطقة سوى العدالة الوحشية. وسوف تستغرق العملية عدة أعوام، وسيرحِّب الناس بها في بادىء الأمر. غير أنها سرعان ما تكسب أعداء كثيرين، وسوف يغضب المواطنون من فرض مثل هذه العدالة غير المتسامحة عليهم، ولا سيما على يد غرباء خارجيين. وإذن فإن سيزار نفسه لا يمكن أن يكون وكيل هذه العدالة. إذْ أن كراهية الناس سوف تسبِّب مشاكل زائدة عن الحد في المستقبل. وهكذا اختار الرجل الوحيد الذي يمكن أن يقوم بالمهمة القذرة، وكان سيزار يعرف سلفاً أنه ما أن تنتهي تلك المهمة حتى يكون عليه أن يعرض رأس دي أوركو على عمود. فكبش الفداء في هذه الحالة كان قد خُطِّطَ له منذ البداية.

بالنسبة لتسآو تسآو، كان كبش الفداء رجلاً بريئاً براءة كلِّية. أما في حالة رومانا، فقد كان كبش الفداء السلاح الهجومي في ترسانة سيزار، مما أتاح له القيام بالعمل القذر بدون أن يلطخ يديه بالدماء. وفي حالة هذا النوع الثاني من كباش الفداء، فإن من الحكمة أن تفصل نفسك عن رجل البلطة عند نقطة معيَّنة؛ فإمّا أن تتركه معلَّقاً في الهواء، مثل سيزار، وحتى أن تجعل نفسك الرجلَ الذي يأتي به للمثول أمام العدالة. وبذلك لا تصبح متحرِّراً من التورُّط في المشكلة فحسب، بل تظهر كأنك أنت الشخص الذي كنسها.

> كان أهل أثينا يحتفظون بانتظام بعدد من المخلوقات المنحطة التي لا فائدة فيها على حساب الخزينة العامة؛ وكلما أصابت المدينة كارثة، كالطاعون أو الجفاف أو المجاعة... كانت [كباش الفداء هذه] تقاد هنا وهناك... ثم يُضَحَّى بها، على ما يبدو بالرجم خارج المدينة.
>
> *(كتاب الغصن الذهبي، لمؤلفه السير جيمس جورج فريزر، 1854-1941)*

مفاتيح السلطة

إن استخدام كبش فداء قديم قدم الحضارة نفسها. ويمكن العثور على أمثلة له في الحضارات حول العالم. والفكرة الأساسية من وراء هذه الأضاحي هي نقل الذنب والخطيئة إلى شخصية خارجية، سواء أكانت شيئاً، أم حيواناً، أم رجلاً، ثم تُنْفَى تلك الشخصية أو تُدَمَّر. فالعبرانيون اعتادوا أن يأخذوا عنزةً حيَّةً (ولعل عبارة كبش الفداء جاءت من هنا) فيضع الكاهن يديه الاثنتين معاً على رأسها وهو يعترف بخطايا بني إسرائيل. وبعد أن ينقل تلك الخطايا إلى العنزة على هذا النحو، كانت العنزة تُقاد بعيداً لتُتْرَك في البريَّة. وعند الأثينيين والآزتيك كان كبش الفداء بشراً، وعلى الأغلب شخصاً يُغَذَّى ويُنَشَّأُ لهذا الغرض. وبما أنهم كانوا يعتقدون أن المجاعات والطواعين إنما هي أشياء توقعها الآلهة بالبشر عقاباً لهم على ظلمهم، فإن الناس لم يكونوا يعانون من المجاعة

والطاعون فحسب، بل كذلك من اللوم والشعور بالذَّنْب. فيحرِّرون أنفسهم من الذنب بتحويله إلى شخص بريء، يُقْصَدُ بموته إلى إرضاء القوى الإلهية، وإبعاد الشر بنفيه من بين ظهرانيهم.

إن عدم النظر إلى الداخل بعد وقوع خطإٍ أو جريمة إنما هو رد فعل إنساني للغاية، فالناس يبحثون بدلاً من ذلك في الخارج لإلصاق اللوم والذنب بضحية مناسبة. فعندما كان الطاعون يعصف بمدينة طيبة، بحث أوديب عن سببه في كل مكان، في كل مكان إلاَّ في داخله وفي ذنبه بزواجه من أمه المحرَّمة عليه، مما أغضب الآلهة، وسبَّب الطاعون. فهذه الحاجة العميقة إلى نقل الذنب إلى الخارج، وإسقاطه على شخص أو شيء آخر، لها قوة هائلة، يعرف البارعون كيف يلجمونها لمصلحتهم إن تقديم الأضاحي هو أحد الطقوس، ولعله أقدمها. كما أن الطقوس ينبوع للسلطة. ففي قتل دي أوركو، لاحظ الطريقة الرمزية والطقوسية التي عُرِضَ بها جسده. فقد استجاب لها مواطنو رومانا. وبما أننا نميل، بشكل طبيعي، إلى البحث في الخارج بدلاً من الداخل، فإننا نسارع إلى قبول ذَنْب كبش الفداء.

وتبدو التضحية الدامية بكبش الفداء أثراً من بقايا الماضي الهمجيّ. ولكن ممارستها مستمرة إلى يومنا هذا، ولو بصورة غير مباشرة ورمزية؛ إذْ أن السلطة تعتمد على المظاهر. وينبغي أن يظهر أن أصحاب السلطة لا يرتكبون أخطاء على الإطلاق، ولذا فإن استخدام أكباش الفداء لا يزال له شعبية كما كان في أي وقت مضى. فأي زعيم من زعماء العالم الحديث يقبل تحمل المسؤولية عن أخطائه؟ إنه يبحث عن آخرين ليلقي باللوم عليهم. فعندما فشلت ثورة ماو تسي ـ تونغ فشلاً ذريعاً، لم يقدم أي اعتذارات أو معاذير للشعب الصيني. وبدلاً من ذلك قام ـ كما فعل تسآو تسآو من قبله ـ بتقديم ضحايا، من بينم أمين سره الشخصي وعضو الحزب الرفيع المنزلة شْيِينْ بو ـ تا.

كانت لفرانكلين ديلانو روزفلت سمعة بالصدق والنزاهة والإنصاف. غير أنه طيلة حياته العملية واجه مواقف كثيرة كان فيها اللطف يعني كارثة سياسية ـ ومع ذلك لم يكن يستطيع أن يظهر كصاحب أيّ سلوك عنيف أو غير أخلاقي ـ . ولذا فقد راح أمين سره، لويس هاو، يلعب الدور الذي مارسه دي أوركو من قبل. فكان هو الذي يتعاطى صفقات الغرف الخلفية، والتلاعب بالصحافة، والمناورات الخفية في الحملات الانتخابية. وكلما ارْتُكِب خطأ، أو خدعة قذرة تناقض صورة روزفلت المرسومة بعناية، وانكشف ذلك للناس، كان لويس هاو، يُسْتَخْدَمُ ككبش فداء، ولم يتذمَّر قطّ.

وبالإضافة إلى نقل اللوم بشكل مناسب، يمكن استخدام كبش الفداء كإنذار للآخرين. ففي سنة 1631، تم طبخ مؤامرة لإزاحة الكردينال الفرنسي ريشيليو من السلطة، وهي المؤامرة التي عُرفت باسم «يوم المغفلين». وكادت تنجح. فقد اشتركت فيها المراتب العليا من الحكومة، بما فيها الملكة الوالدة. ولكن ريشيليو نجا، بسبب حظه وتواطئه، وتغاضيه وتستّره.

وكان أحد المتآمرين الرئيسيين رجلاً يدعى مارياك، وهو حامل الأختام. ولم يكن ريشيليو قادراً على حبسه دون الإشارة بإصبع الاتهام إلى الملكة الوالدة؛ وهذا تكتيك خطر للغاية، وهكذا استهدف أخاه، وهو مشير في الجيش. ولم يكن ذلك الرجل ضالعاً في المؤامرة. غير أن ريشيليو كان يخشى وجود مؤامرات أخرى تختمر في الجوّ، وخصوصاً في الجيش. فقرَّر أن يجعل من المشير أمثولة لمن يعتبر. فقدَّمه للمحاكمة بتهم ملفقة وأعدمه. وبهذه الطريقة عاقب المذنب الحقيقي بطريقة غير مباشرة، بعد أن كان ذلك المذنب يظن نفسه محميّاً. وبذلك حذّر أي متآمرين في المستقبل بأنه لن يتوانى عن التضحية بالأبرياء لحماية سلطته.

والواقع أنه كثيراً ما يكون من الحكمة اختيار أكثر الضحايا براءة ككبش للفداء. إذْ أن مثل أولئك الناس ليست لديهم قوة كافية لمقاتلتك. وقد تبدو احتجاجاتهم الساذجة زائدة عن حدها، أو بكلمات أخرى، قد تبدو كمؤشِّر على ذنبهم. ولكن احذر أن تخلق شهيداً. فمن المهم أن تظل أنت الضحية، والقائد المسكين الذي خانه انعدام الكفاءة فيمن حوله. وإذا ظهر كبش الفداء مفرط الضعف وعقوبته مفرطة القسوة، فقد ينتهي بك الأمر كضحية لترتيباتك نفسها. وهكذا يتعيَّن عليك أحياناً أن تعثر على كبش فداء أقوى، بحيث يستدر عطفاً أقل على المدى البعيد.

في هذا السياق، أظهر التاريخ مرة بعد أخرى قيمة استخدام شخص شديد القرب من السيد ككبش فداء. وهذا معروف بأنه «سقوط صاحب الحظوة». فمعظم الملوك يكون لديهم شخص مفضَّل في البلاط، شخص يختارونه من بين الجميع، وأحياناً بلا سبب ظاهر، ليغدقوا عليه الإكرام والإنعام والاهتمام. ولكن مثل هذا الرجل المفضَّل يمكن استخدامه ككبش فداء ملائم في حالة وجود ما يهدِّد سمعة الملك. فالناس سيؤمنون بذنب كبش الفداء ـ وإلاَّ فلماذا يضحِّي الملك بالشخص المفضَّل لديه إن لم يكن مذنباً؟ كما أن رجال الحاشية الآخرين، الساخطين أصلاً على ذلك الرجل المقرَّب، سيفرحون لسقوطه. وفي الوقت نفسه يتخلَّص الملك من رجل ربما كان يعرف عن الملك أكثر من اللازم، وقد يكون متغطرساً ومحتقِراً للملك. فاختيار الشخص المقرَّب ككبش فداء له قيمة تساوي «سقوط صاحب الحظوة». وقد تخسر صديقاً أو مساعداً. ولكن إخفاء أخطائك على المدى الطويل أهم من التمسك بشخص يحتمل أن ينقلب ضدك ذات يوم. وبالإضافة إلى ذلك فإنك قادر دائماً على العثور على مقرَّب مفضَّل جديد يحلّ محلّه.

صورة: العنزة البريئة. في يوم
الغفران، يجلب الكاهن الأكبر عنزة
إلى المعبد، ويضع يديه على رأسها،
ويعترف بذنوب شعبه، ناقلاً الذنب
إلى الحيوان غير المذنب، الذي يقاد
بعدئذٍ إلى البرية ويترك. فتختفي معه
خطايا الشعب وملامته.

الشاهد: لا يتكوَّن الحمق من ارتكاب الحماقة، ولكن من العجز عن إخفائها. فكل ابن آدم خطَّاء، ولكن العقلاء يخفون الأخطاء التي سقطوا فيها، بينما يعلنها الحمقى على الملأ. فالسمعة تعتمد على ما هو مخبَّأ أكثر من اعتمادها على ما هو مُشَاهَد. فإن لم تكن تستطيع أن تكون طيِّباً، فكن حريصاً.

(بلتازر غراسيان، 1601-1658)

القسم الثاني: استفد من مخلب القط

في الخرافة، يمسك القرد بمخلب صديقه القط، ويستخدمه لالتقاط ثمار الكستناء المشوية من النار، وبذلك يحصل على الثمار التي يشتهيها، دون أن يؤذي نفسه.

فإذا كان هناك شيء كريه أو غير شعبي يتعيَّن عمله، فإن قيامك به بنفسك يعرِّضك لمخاطر شديدة للغاية. وعندئذ تحتاج إلى مخلب قطّ ـ إلى شخص يقوم بالعمل القذر الخطِر نيابة عنك. فمخلب القط يلتقط لك ما تحتاج إليه، ويؤذي مَنْ تحتاج إلى إيذائه، ويحجب الناس عن ملاحظة كونك أنت المسؤول. دع شخصاً آخر يكون هو الجلاَّد، أو حامل الأخبار السيِّئة، بينما لا تأتي أنت إلاَّ بالمرح والأخبار السارَّة.

مراعاة القانون الأولى

القرد والقط

كان هناك قرد وقطّ قد تآخيا في الخبث والمزاح، وكان لهما سيِّد واحد. فكان كل تخريب يحدث في البيت يتحوّل على أيدي باغ وتوم إلى كارثة...

وذات يوم في الشتاء، شوهد الاثنان يجلسان بالقرب من نار المطبخ كالمعتاد. وبين جمرات الفحم المحمرة كان الطبّاخ قد وضع بعناية بعض ثمار الكستناء المنتفخة كي

في سنة 59 ق.م، كانت ملكة مصر المقبلة كليوباترا في العاشرة من عمرها عندما شهدت سقوط والدها، بطليموس الثاني عشر، ونفيه على يد بناته الكبيرات، أخوات كليوباترا. وقد برزت إحدى البنات، وهي بيرنيس، كقائدة للتمرد، ولكي تضمن أنها ستحكم مصر وحدها، فقد حبست أخواتها الأخريات واغتالت زوجها. وربما كان ذلك ضرورياً كخطوة عملية لضمان حكمها. ولكن قيام واحدة من أفراد الأسرة المالكة، وملكةٍ لا أقلّ، بإيقاع مثل هذا العنف بأسرتها نفسها قد أرعب رعاياها وأثار ضدها معارضة قوية. وبعد أربعة أعوام استطاعت هذه

المعارضة أن تعيد بطليموس إلى السلطة. فقام على الفور بقطع رؤوس بيرنيس وأخواتها الأخريات الأكبر منها.

وفي سنة 51 ق.م، توفي بطليموس، تاركاً أربعة من أطفاله الباقين لوراثته. وحسب التقاليد السائدة في مصر، قام الابن الأكبر، بطليموس الثالث عشر (الذي كان عمره عشرة أعوام فقط آنذاك) بالزواج من شقيقته كليوباترا (التي كانت في الثامنة عشرة)، وتسلَّم الزوجان العرش معاً كملك وملكة. ولم يرضَ أيٌّ من الأطفال الأربعة عن هذا الوضع، إذ كان كلّ واحد منهم ـ وذلك يشمل كليوباترا ـ يريد مزيداً من السلطة. وهكذا نشأ صراع بين كليوباترا وبطليموس، إذْ راح كل منهما يحاول أن يزيح الآخر جانباً.

وفي سنة 48 ق.م، وبمساعدة شطر من الحكومة كان يخشى طموح كليوباترا، تمكن بطليموس من إرغام أخته على الهرب من البلاد، وتركته حاكماً وحيداً. ولكنها راحت تخطِّط وهي في المنفى. كانت تريد أن تحكم وحدها وتعيد مصر إلى مجدها الغابر، وهو هدف شعرت أنه لا أحد من الورثة الصغار الآخرين قادر على تحقيقه؛ ومع ذلك فإنها لن تستطيع تحقيق أحلامها ما داموا أحياء. وقد أوضحت لها أمثولة بيرنيس أنه لن يخدم الملكة أي واحد شوهد وهو يغتال أمثالها. فحتى بطليموس الثالث عشر لم يجرؤ على اغتيال كليوباترا، رغم علمه بأنها ستتآمر عليه من الخارج.

وفي غضون سنة من نفي كليوباترا، وصل الدكتاتور الروماني يوليوس قيصر إلى مصر، مصمِّماً على جعلها مستعمرة رومانية. وعندئذٍ رأت كليوباترا فرصتها. فعادت إلى دخول مصر متنكِّرة، وقطعت مئات الأميال حتى وصلت إلى قيصر في الاسكندرية. وتروي الأسطورة أنها هرَّبت نفسها إلى حضرته ملفوفة داخل سجادة فرشت تحت قدميه برشاقة، متكشفة عن الملكة الشابة. وبدأت كليوباترا فوراً في لفّ حبائلها حول الروماني، مستغلَّة حبّه للمشاهد الاستعراضية واهتمامه

يشويها، ومنها انبعثت مع الدخان رائحة حادة وصلت بعطرها الزيتيّ إلى أنف القرد الماكر «باغ» الذي قال: «يا توم، هل نستطيع، أنت وأنا، أن نتقاسم هذه الأشياء الحلوة التي وضعها هناك الطبّاخ؟ لو أن لي مثل مخالبك لحاولت بسرعة: أعرني يدك – ستكون هذه ضربة معلم». وبعد أن قال ذلك، أمسك بمخلب زميله الجاهز، والتقط به الفاكهة، وحشرها في فكّه.

وعندئذ جاءت ربة البيت المشرفة، فسارع اللّصان المغيران إلى الهرب. فتلقى توم عقوبة مؤلمة على دوره في عملية السطو، بينما تلقى باغ المدلّل طبقًا من الأفاوية.

خرافات

جان دي لافونتين

1695–1621

بالتاريخ المصري، وصبَّت عليه مفاتن أنوثتها، وسرعان ما رضخ لها قيصر وأعادها إلى عرشها.

واهتاج إخوة كليوباترا الصغار، فقد تغلَّبت عليهم بمناورتها. ولم ينتظر بطليموس ما سيحدث بعد ذلك. فاستدعى من قصره بالاسكندرية جيشاً عظيماً للزحف على المدينة ومهاجمة قيصر. وعلى الفور قام قيصر بوضع بطليموس وبقية أسرته في الإقامة الجبرية. ولكن آرسينو، أخت كليوباترا الصغرى، هربت من القصر ووضعت نفسها على رأس القوات المصرية الزاحفة، معلنةً نفسها ملكة على مصر. وأخيراً وجدت كليوباترا فرصتها: فأقنعت قيصر أن يطلق سراح بطليموس من الإقامة الجبرية، بموجب اتفاقية يتفاوض فيها على هدنة. وكانت بالطبع تعلم أنه سيفعل عكس ذلك، وأنه سيقاتل آرسينو للسيطرة على الجيش المصري. ولكن ذلك سيكون من شأنه أن يفيد كليوباترا، لأنه سيقسم الأسرة المالكة، وأفضل من ذلك أنه سيعطي قيصر فرصة قتل إخوتها في المعركة.

أنشى الغراب، والكوبرا، وابن آوى

كان هناك ذات مرة غراب وزوجته وقد أقاما عشًا على شجرة تين البنغال. فزحفت حية ضخمة إلى داخل الفراغ في جذع الشجرة، وأكلت الفراخ عندما فقست. ولم يُرِدِ الغراب أن ينتقل؛ لأنه كان يحب الشجرة كثيرًا. وهكذا ذهب إلى صديقه ابن آوى طالبًا نصيحته. فتم وضع خطة للعمل، وأخذ الغراب وزوجته يطيران هنا وهناك تنفيذًا لها. وعندما اقتربت الزوجة من بركةٍ رأت نساء البلاط يسبحن فيها، وقد تركن على حافتها لآلئهن وقلائدهنَّ ومجوهراتهنَّ وملابسهنَّ وسلسلة ذهبية. فتناولت السلسلة الذهبية بمنقارها وطارت باتجاه

وتلقى قيصر تعزيزات عسكرية من روما، فدحر المتمردين بشكل كاسح. وأثناء التراجع المصري غرق بطليموس في النيل. ووقعت آرسينو في أسر قيصر، الذي أرسلها إلى روما كسجينة. كما أعدم الأعداء العديدين الذين تآمروا على كليوباترا، وسجن آخرين ممن كانوا يعارضونها. وتزوَّجت كليوباترا الوريث الوحيد الباقي، بطليموس الرابع عشر، كي تعزِّز موقعها كملكة بلا منازع ـ وكان عمر بطليموس هذا أحد عشر عاماً فقط ـ وكان أضعف الجميع. وبعد أربعة أعوام مات مسموماً في ظروف غامضة.

وفي سنة 41 ق.م، مارست كليوباترا على قائد روماني آخر هو مارك آنطونيو، الخطط نفسها التي نجحت في استخدامها على يوليوس قيصر. فبعد أن أَغْوَتْهُ ألمحت له أن أختها آرسينو، السجينة في روما، كانت قد تآمرت لتدميره. فصدَّقها آنطونيو وأمر بإعدام آرسينو في الحال، وبذلك تخلَّصت كليوباترا من آخر الورثة الذين كانوا يشكِّلون تهديداً لها.

التفسير

حسب الأسطورة، نجحت كليوباترا من خلال مفاتنها الآسرة. ولكن سلطتها كانت ناجمة في الحقيقة من قدرتها على جعل الناس يفعلون ما تشير به عليهم دون أن يعرفوا أنها تتلاعب بهم. فلم يكتف قيصر وآنطونيو بتخليصها من أخطر أقاربها ـ بطليموس الثالث عشر وآرسينو ـ بل إنهم شتَّتوا جميع أعدائها، سواء في الحكومة أم في الجيش. فصار الرجلان مخلبيْ قِطٍّ في يدها. ودخلا النار من أجلها، وقاما بالعمل القبيح والضروري، وحمياها من الظهور بمظهر محطِّمة أقاربها الصغار وأهلها المصريين. وفي نهاية المطاف وافق الرجلان كلاهما على رغبتها في حكم مصر، ليس كمستعمرة رومانية، بل كمملكة مستقلة حليفة. وقد فعلا ذلك كله لصالحها دون أن يعرفا أنها كانت تتلاعب بهما. فقد كان هذا إقناعاً خفياً ذكياً من أقوى الأنواع.

شجرة تين البنغال، والخصيان يطاردونها. وعندما وصلت إلى الشجرة ألقت بالسلسلة في الحفرة، وحالما تسلّق رجال الملك الشجرة لاستعادة السلسلة، شاهدوا قلنسوة الكوبرا المنتفخة. وهكذا قتلوها بهراواتهم، واستردوا السلسلة وعادوا إلى البِرْكة. فعاش الغراب وزوجته سعيدين بعد ذلك أبدًا.

قصة من البانتشاتانترا

[مجموعة من الخرافات السنسكريتية]

من القرن الرابع. معادة روايتها في حرفة السلطة، لمؤلفه ر.ج.هـ. سيو،

1979

فالملكة لا ينبغي لها قَطُّ أن تلوِّث يديها بالمهام القذرة، ولا يستطيع الملك أن يظهر على الملأ ووجهه ملطَّخ بالدم. ومع ذلك فإن السلطة لا تقدر أن تعيش بدون سحق الأعداء باستمرار ـ وستظل هناك دائماً مهمات صغيرة قذرة يتعيَّن القيام بها لإبقائك على العرش. ولذا فأنت ـ مثل كليوباترا ـ بحاجة إلى مخلب قِطّ.

وهذا المخلب في العادة شخص من خارج الدائرة المباشرة التي تحيط بك. ولذا فسيكون من غير المحتمل أن يدرك كيف يجري استغلاله (أو استغلالها). ومثل هؤلاء المغفلين موجودون في كل مكان ـ فهم أناس يتمتعون بإسداء المعروف لك، ولا سيما إذا ألقيت إليهم عَظْمَةً أو عَظْمتين من أصغر نوع في المقابل ـ . ولكن أثناء تأديتهم لمهمات قد تبدو بريئة بما فيه الكفاية، أو لها تبرير كامل على الأقل، فإنهم في الحقيقة يمهِّدون لك السبيل، وينشرون المعلومات التي تغذيهم بها، ويقوِّضون أناساً وهم لا يدركون أنهم غرماؤك ومنافسوك، بحيث

يعزِّزون قضيتك دون قصدٍ منهم، فيلطِّخون أيديهم بينما تبقى يداك نظيفتين تماماً.

مراعاة القانون الثانية

في أواخر عشرينات القرن العشرين الماضي، اندلعت الحرب الأهلية في الصين عندما راح الحزبان الوطني والشيوعي يقتتلان للسيطرة على البلاد. وفي سنة 1927، أقسم زعيم الوطنيين تْشْيَانْغْ كاي ـ تِشيكْ أن يقتل الشيوعيين عن آخرهم. وعلى مدى الأعوام القليلة التالية كاد يحقِّق هذه المهمة. فقد ضغط على أعدائه بشدّة، حتى أرغمهم، في سنة 1934 ـ 1935، على المسيرة الطويلة، وهي تراجع لمسافة ستة آلاف ميل من الجنوب الشرقي إلى أقاصي الشمال الغربي، عبر أراضٍ وعرةٍ قاسية تمزَّقت فيها معظم صفوفهم ومراتبهم. وفي سنة 1936 كان تشيانغ يخطِّط لهجوم أخير لإبادتهم عن آخرهم. غير أنه تعرَّض لتمرد، فقبض عليه جنوده وسلَّموه للشيوعيين، ولم يكن بوسعه سوى توقع أسوأ شيء.

غير أن اليابانيين بدأوا غزوهم للصين في هذه الأثناء. ولدهشة تشيانغ الشديدة، فإن القائد الشيوعي ماو تسي ـ تونغ لم يقتله، بل عرض عليه صفقة بدلاً من ذلك: يتركه الشيوعيون طليقاً، ويعترفون به قائداً لقواتهم وقواته، إذا وافق على أن يقاتل إلى جانبهم ضد عدوّهم المشترك. وكان تشيانغ يتوقَّع التعذيب والإعدام؛ ولذا لم يستطع أن يصدِّق حظه. لقد أصبح هؤلاء الحمر شديدي اللين. وكان تشيانغ يعرف أنه إذا لم يقاتل معركة في مؤخرة جيشه ضد الشيوعيين فإنه يستطيع أن يهزم اليابانيين، ثم يستدير بعد بضع سنين ليدمِّر الحمر بسهولة. فلم يكن لديه أي شيء يخسره، وكل شيء ليربحه من الموافقة على شروطهم.

وانطلق الشيوعيون ليقاتلوا اليابانيين بأسلوبهم المعتاد، بخطط حرب العصابات وفق مبدأ: اضرب واهرب، بينما راح الوطنيون يخوضون حرباً تقليدية نظامية أكثر. فنجح الجانبان معاً في طرد اليابانيين

كيف تذاع الأخبار

عندما أسلم عمر بن الخطاب، أراد أن ينتشر خبر إسلامه ليصل الناس جميعًا بسرعة. فذهب ليرى جميل بن معمر الجحمي الذي كان مشهورًا بسرعة نقله للأسرار. فكان إذا أُخْبِرَ بِسِرٍّ أعْلَم كُلَّ الناس به على الفور. فقال له عمر: «لقد أسلمت. فلا تقل شيئًا. وأبقِ الأمر مبهمًا، ولا تذكره أمام أي إنسان». فخرج جميل إلى الطرقات وراح يصرخ بأعلى صوته: «أتعتقدون أن عمر بن الخطاب لم يسلم؟ لا تصدّقوا ذلك! إنني أخبركم بأنه قد أسلم!».

فانتشر خبر إسلام عمر في كل مكان. وكان ذلك بالضبط هو ما قصد إليه.

الخدعة الذكية:

كتاب الحكمة والأحابيل العربية

القرن الثالث عشر

بعد سنوات عديدة. وعندئذٍ أدرك تشيانغ، أخيراً، ما الذي كان يرمي إليه ماوْ مِنْ خططه. فجيش تشيانغ هو الذي تلقَّى ثقل وطأة المدفعية اليابانية، وقد أصابه ضعف شديد جعله محتاجاً إلى بضع سنين كي يستعيد عافيته. أما الشيوعيون فلم يكتفوا بتجنّب أية ضربة مباشرة من اليابانيين في تلك الأثناء، بل استغلُّوا الوقت لاستعادة قوَّتهم، وللانتشار وكسب جيوب ومواقع للنفوذ في جميع أنحاء الصين. وحالما انتهت الحرب ضد اليابانيين، بدأت الحرب الأهلية كرَّة أخرى، ولكن الشيوعيين في هذه المرة أحاطوا بالوطنيين واكتنفوهم وهزموهم حتى أخضعوهم ببطء. فقد استخدم ماو اليابانيين كمخلب قطّ، فحرثوا الحقول لصالح الشيوعيين عن غير قصد، وأتاحوا لهم إمكانية الانتصار على تْشْيَانْغْ كاي ـ تشيك.

التفسير

لو وقع عدو قوي مثل تشيانغ كاي ـ تشيك أسيراً في يد أي واحد من معظم القادة، لتأكَّدوا من قتله، ولكنهم بعملهم هذا كانوا سيخسرون الفرصة التي استغلها ماو. فبدون تشيانغ المجرِّب الخبير كقائد للوطنيين، ربَّما كان القتال لطرد اليابانيين سيستغرق وقتاً أطول بكثير، وتكون له نتائج مدمِّرة. وكان ماو أعقل بكثير من أن يجعل غضبه يفسد عليه فرصة قتل عصفورين بحجر واحد. ومن حيث الأساس والجوهر، فقد استخدم ماو مخلبيّ قِطّ لمساعدته في الوصول إلى النصر الكلِّي. فأولاً، قدَّم لتشيانغ ببراعة طُعْمَ تولِّي مسؤولية الحرب ضد اليابانيين. فقد كان يعلم أن الوطنيين بقيادة تشيانغ سيقومون بالقسم الأكبر من القتال الضاري، وينجحون في إخراج اليابانيين من الصين، إذا لم يقلقوا أنفسهم بقتال الشيوعيين في الوقت نفسه. وإذن فقد كان الوطنيون هم مخلب القطّ الأول، الذي استخدم لطرد اليابانيين. ولكن ماو كان يعلم أيضاً أنه في عملية قيادة الحرب ضد الغزاة، فإن المدفعية اليابانية، يدعمها الطيران، سوف تمزِّق القوات التقليدية للوطنيين، فتسبِّب لهم أضراراً لا يستطيع

الأحمق والرجل العاقل

كان رجل عاقل يسير وحده، فأزعجه شخص أحمق راح يرمي الحجارة على رأسه. فالتفت ليواجهه، وقال له:

«أيها الشاب العزيز، لقد أجدت الرمي! أرجوك أن تقبل هذه الفرنكات القليلة. فقد عملت بمشقة تكفي لحصولك على ما هو أكثر من الشكر. إذ إن كل جهد يستحق جائزة. ولكن هل ترى هذا الرجل الذي هناك؟ إنه يستطيع أن يدفع لك أكثر مني. فأهْدِهِ بعض حجارتك وستكسب أجرًا حسنًا».

وأغرى الطعمُ ذلك الرجل الغبيَّ، فهرع ليكرر الإهانة نفسها على المواطن الطيب الآخر. وفي هذه المرة لم يكن أجره هو المال. فقد هجم الرجال العاملون،

الشيوعيون إيقاع مثلها بهم إلاَّ على مدى عقود من السنين. فلماذا يضيِّع الشيوعيون وقتاً وأرواحاً إذا كان اليابانيون يستطيعون إنجاز المهمة بسرعة؟ وهكذا كانت هذه السياسة الحكيمة باستعمال مخلب قِطّ بعد مخلب قِطّ آخر هي التي أتاحت للشيوعيين أن ينتصروا.

هناك استخدامان لمخلب القطّ: لإنقاذ المظاهر، كما فعلت كليوباترا، ولتوفير الطاقة والجهد. والحالة الأخيرة على وجه الخصوص تتطلَّب أن تخطِّط عدة حركات سلفاً، بحيث تدرك أن حركة مؤقتة إلى الوراء (مثل إطلاق سراح تشيانغ) يمكن أن تؤدي إلى قفزة عملاقة إلى الأمام. فإن كنت قد تعرَّضت للضعف مؤقتاً، وتحتاج إلى وقت لتستعيد عافيتك، فكثيراً ما يخدمك جيداً أن تستخدم مَنْ حولك لغرضين في الوقت نفسه، كستار لإخفاء نواياك، وكمخلب قِطّ للقيام بعملك نيابة عنك. ابحث عن طرف ثالث قوي له عدوٌّ مُشْتَرَكٌ معك (ولو لأسباب مختلفة)، ثم استغل قوَّتهما المتفوِّقة لجعل كل منهما يوجِّه إلى الآخر ضرباتٍ كانت ستكلِّفك طاقة أكبر بكثير، ما دمت أنت الأضعف. بل يمكنك أن تقودهما بلطف إلى الاقتتال. وابحث دائماً عن صاحب النزعة الأكثر عدوانيةً ـ كمخلب قطّ محتمل ـ فكثيراً ما يكونان أكثر من مستعدين للدخول في قتال. ويمكنك اختيار المعركة الملائمة لأغراضك تماماً لتؤجِّجها بينهما.

وأمسكوا بتلابيبه، وضربوه ضربًا مبرحًا وكسروا عظامه كلها.

في بلاط الملوك أشخاص مزعجون كهذا، ممّن لا عقل لديهم. وهم يجعلون سيدهم يضحك على حسابك. فهل يتعين عليك أن تُسْكِت قهقهاتهم بعقوبة خشنة؟ قد لا تكون لديك قوة كافية. فالأفضل أن تُقْنِعَهُمْ بمهاجمة شخص آخر يستطيع أن يرد لهم الصاع صاعين.

خرافات منتقاة

جان دي لافونتين

1695–1621

مراعاة القانون الثالثة

كان كورياما ديزن خبيراً في التشا ـ نو ـ يو (الماء الساخن للشاي، حفلة الشاي اليابانية)، وتلميذاً لتعاليم أستاذ الشاي العظيم صِنْ فوركيو. وفي حوالي سنة 1620، علم ديزن أن صديقاً له هو شينو سويمون قد استدان مبلغاً كبيراً من المال (300 ريو) لمساعدة قريب له تورَّط في الدين. ولكن على الرغم من أن سويمون تمكَّن من إنقاذ قريبه، فإنه في الواقع لم يزد على أن نقل العبء منه إلى نفسه. وكان ديزن يعرف سويمون جيِّداً، فقد كان لا يهتم بالنقود ولا يفهم عنها شيئاً يذكر. وكان

من الممكن أن يقع في المتاعب بسهولة من خلال بطئه في تسديد القرض، الذي قدَّمه إليه تاجر غني يدعى كواشيا سينيمون. ومع ذلك فلو عرض ديزن على سويمون أن يساعده في تسديد القرض لرفض بسبب كبريائه، بل لربما شعر بالإهانة.

وذات يوم، قام ديزن بزيارة صديقه، وبعد أن طافا في الحديقة ونظرا إلى أزهار الفادانيا الحمراء والقرنفلية التي زرعها سويمون، انسحبا إلى غرفة الاستقبال. وهناك رأى ديزن لوحة من رسم الأستاذ كانو طينيو، فهتف: «آه، هذه تحفة فنية رائعة... لا أدري متى رأيت أي شيء أحبه أكثر من مثل هذه اللوحة». وبعد فورات عديدة من هذا المديح، لم يبق لسويمون أي خيار، فقال: «حسناً، بما أنك تحبّها إلى هذا الحدّ، فإني آمل أن تتكرَّم عليَّ بقبولها».

فرفض ديزن في بادىء الأمر، ولكنه استسلم وقبلها عندما ألحَّ عليه سويمون. وفي اليوم التالي، تلقَّى سويمون بدوره رزمة من ديزن، وفي داخلها مزهرية جميلة لطيفة ومعها رسالة طلب فيها ديزن من صديقه أن يقبلها كرمز لتقديره للوحة التي تلطَّف سويمون بإهدائها له في اليوم السابق. وأوضح له أن المزهرية قد صنعها صن نوركيو بنفسه، وهي تحمل كتابة منقوشة من الإمبراطور هيديوشي. فإذا لم يهتم سويمون بالمزهرية فيمكنه ـ كما اقترح عليه ديزن في رسالته ـ أن يهديها إلى أحد أتباع التشا ـ نو ـ يو وربما إلى التاجر كاواشيا سانيمون، الذي كثيراً ما كان يعبِّر عن رغبته في اقتنائها. وتابع ديزن يقول في رسالته: «لقد سمعت أن لديه قطعة جميلة من الورق [مستند قرض الثلاثمائة ريو] تحبّ كثيراً أن تحصل عليها. فمن الممكن أن ترتِّب معه عملية تبادل».

فأدرك سويمون ما الذي كان صديقه يرمي إليه. وهكذا أخذ المزهرية لصاحب القرض. فهتف سانيمون عندما عرض عليه سويمون تلك المزهرية: «كيف حصلت على هذه؟ لطالما سمعت بها ولكن هذه هي أول مرة أراها فيها. وإنها لكنز نفيس إلى درجة أنه لا يُسْمَحُ

الطير الهندي

كان عند تاجرٍ طيرٌ في قفص. وكان يعتزم الذهاب إلى الهند، البلد الذي جاء منه الطير. فسأله إن كان يستطيع أن يجلب له أي شيء عند عودته. فطلب الطيرُ حرِّيَّته، ولكن طلبه رُفض. فطلب منه الطير أن يزور غابةً في الهند، ويُعْلِم طيورها الحرَّة أنه قد أسره. ففعل التاجر ذلك. ولم يكد ينتهي من كلامه حتى سقط من على شجرة طيرٌ متوحشٌ كطيره إلى الأرض فاقد الوعي. فظن التاجر أنه لابُدَّ أن يكون من أقرباء طائره، وشعر بالحزن لكونه قد تسبب في موته. وعندما عاد إلى وطنه سأله الطير عما إذا كان قد جاء بأخبار طيِّبة من الهند، فقال التاجر: «كلاّ، وأخشى أن تكون أخباري سيئة، فقد سقط أحد أقاربك عند قدميّ عندما ذكرت

بخروجها من البوَّابة!». وعلى الفور عرض مبادلة المزهرية بسند القرض، مع إعطاء سويمون 300 ريو إضافية. ولكن سويمون، الذي لم يكن يهتم للمال، كان يريد استعادة سند القرض فقط، فأعطاه إياه سانيمون بسرور. وعندئذ هرع سويمون إلى بيت ديزن ليشكره على دعمه المقدَّم بطريقة بارعة.

التفسير

كان كورياما ديزن، يفهم أن إسداء الجميل لا يتأتَّى ببساطة على الإطلاق: فإذا تم بضجة وبروز واضح، فإن متلقيه يشعر بأنه واقع تحت وطأة العرفان. وهذا بدوره قد يعطي صاحب المعروف سلطة معيَّنة، ولكنها سلطة ستدمِّر نفسها في آخر الأمر، لأنها ستثير السخط والمقاومة. ولكن المعروف المُسدَى بصورة غير مباشرة، وبلطف وكياسة له سلطة أقوى بعشرة أضعاف. وكان ديزن يعلم أن النهج المباشر لن ينجم عنه سوى مضايقة سويمون أو إهانته. غير أنه عندما جعل صديقه يعطيه اللوحة، فقد أتاح لسويمون أن يشعر أنه هو الآخر قد سرَّ صديقه بهدية. وفي النهاية، خرج الأطراف الثلاثة من المواجهة وهم يشعرون بالرضا، كلٌّ بطريقته الخاصة. ومن حيث الجوهر، فإن ديزن قد جعل نفسه مخلب قِطّ، أي أداة استخراج حبات الكستناء من النار. ولا بدّ أنه قد شعر بشيء من الألم لفقدان المزهرية. ولكنه لم يكسب اللوحة فحسب، بل كسب ما هو أهم من ذلك: سلطة رجل الحاشية. فرجل الحاشية يستخدم اليد اللابسة للقفاز ليلطف وقع الضربات، ويخفي ندوب جروحه، ويجعل عملية الإنقاذ أكثر أناقة ونظافة. كما أنه بمساعدة الآخرين يساعد نفسه. فمثال ديزن يقدِّم نموذجاً لكل معروف يتم إسداؤه بين الأصدقاء والأتراب: فلا تفرض معروفك على أصدقائك أبداً. بل ابحث عن طرق لجعل نفسك مخلب قطّ. وبذلك تنقذ أصدقاءك من محنتهم دون أن تفرض نفسك عليهم، أو تجعلهم يشعرون بوطأة العرفان بجميلك.

كونك أسيرًا». وما إن سمع الطير كلمات التاجر حتى انهار وسقط إلى قاع القفص. فاعتقد التاجر أن «خبر موت قريبه قد قتله أيضًا». فالتقط الطير بأسف، ووضعه في إفريز النافذة. فعاد الطير إلى الحياة على الفور، وطار إلى شجرة قريبة، وقال: «إنك تعلم الآن أن ما ظنَنْتَهُ كارثةً كان في الحقيقة خيرًا طيبًا لي. وكيف وصلتني الرسالة، واقتراح كيف يجب عليَّ أن أسلُك لأحرّر نفسي. هذه الرسالة قد وصلتني عن طريقك يا آسري». وطار بعيدًا، وقد تحرّر في آخر الأمر.

قصص الدراويش

إدريس شاه،

1967

على المرء أن لا يكون مفرطاً في الاستقامة المباشرة.
إذهب وانظر إلى الغابة. فالأشجار المستقيمة تُقْطَع،
أما الأشجار المعوجَّة المتلوّية فتُتْرَكُ واقفة.

(كوتيليا: فيلسوف هندي من القرن الثالث ق.م)

مفاتيح السلطة

قد تتصوَّر كقائد أن الاجتهاد المطَّرد والظهور بمظهر من يعمل بكدح ومشقّة أكثر من الآخرين جميعاً، يرمز إلى السلطة. غير أن لذلك في الحقيقة أثراً عكسياً. إذْ أنه يشير ضمناً إلى الضعف. فلماذا تشتغل بمثل هذه المشقّة؟ لعلَّك غير كفء، ومضطر إلى بذل جهد إضافيّ لتعويض عجزك؛ ولعلَّك واحد من الذين لا يعرفون كيف يفوِّضون الآخرين، فتضطر إلى التدخل في كل شيء. أما ذوو السلطة الأقوياء حقاً، من جهة أخرى، فإنهم لا يبدون في عجلة من أمرهم، ولا محمَّلين بأعباء أثقل من المعتاد. فبينما يشغِّل الآخرون أصابعهم حتى العظم، يعمل ذوو السلطة بتمهل. فهم يعرفون كيف يعثرون على الأشخاص الملائمين ليبذلوا الجهد، بينما ذوو السلطة يوفرون طاقتهم ويُبْقُون أيديهم خارج النار. وبالمثل، فلعلك تعتقد أنك بأخذ العمل القذر بنفسك، بتدخلك المباشر في كل الأعمال الكريهة، تفرض سلطتك وتزرع الخوف في النفوس. والواقع أنك بذلك تجعل نفسك قبيحاً وتسيء إلى منصبك الرفيع. فذوو السلطة الحقيقيون يبقون أيديهم نظيفة، ولا تحيط بهم إلاَّ الأشياء الطيِّبة. والتصريحات الوحيدة التي يطلقونها لا تتحدَّث إلاَّ عن الإنجازات المجيدة.

وكثيراً ما تجد أن من الضروري طبعاً أن تصرف طاقة أو أن تقوم بعمل شرير ولكنه ضروري. غير أنك يجب أن لا تظهر أبداً بوصفك القائم بهذا العمل. اعثر على مخلب قِطّ. طوِّر فنَّ العثور على مثل هؤلاء الناس، واستخدامهم، والتخلُّص منهم في الوقت المناسب بعد انتهائهم من تنفيذ دور مخلب القطّ.

عشية معركة نهرية هامة، وجد تشوكو ليانغ (المخطِّط الاستراتيجي الصيني العظيم في القرن الثالث الميلادي) نَفْسَهُ عرضةً لتهمة ملفَّقة هي العمل سرّاً لصالح الطرف الآخر. وقد طلب منه قائده أن يجهِّز مائة ألف سهم للجيش في غضون ثلاثة أيام للبرهنة بذلك على ولائه. وبدلاً من صناعة تلك الأسهم، وهي مهمة مستحيلة، أخذ ليانغ (دزينة) من القوارب، وألصق على جوانبها أكداساً من القش. وفي المساء المتأخر، حيث كان الضباب يغلِّف النهر، أطلق القوارب لتطفو على صفحة الماء باتجاه معسكر العدوّ. فخشي العدوّ وجود مكيدة دبَّرها تشوكو ليانغ المخادع، فلم يهاجم تلك القوارب (التي لم تكد تكون ظاهرة للعيان) بقوارب من عنده، بل أمطرها بالسهام من على الضفة. وعندما استمرَّت قوارب ليانغ في زحفها الوئيد، ضاعف العدو مطر سهامه التي راحت تعلق وتلتصق بالقش السميك. وبعد عدة ساعات قام الرجال المختبئون في تلك القوارب بقيادة يانغ في مجرى النهر بسرعة، حيث التقى بهم تشوكو ليانغ، وجمع مائة ألف من الأسهم المنغرسة فيها.

ولم يكن تشوكو ليانغ يقوم بعمل يستطيع الآخرون أن يعملوه من أجله ـ وكان دائماً يفكِّر في حيل كهذه. فمفتاح تخطيط مثل هذه الاستراتيجية هو القدرة على التفكير المسبق وببعد نظر، وعلى تخيُّل طرق يمكن بها اجتذاب الآخرين بِطُعْمٍ يقنعهم بالقيام بالمهمة لأجلك.

ومن العناصر الجوهرية لإنجاح عمل هذه الاستراتيجية إخفاء هدفك، وتغليفه بالغموض، كالقوارب المعادية التي تظهر بصورة معتمة وسط الضباب. فعندما لا يستطيع خصومك أن يعرفوا قصدك على نحو أكيد، فسوف يكون ردّ فعلهم تصرفاً بطرق غالباً ما تعمل ضدهم على المدى البعيد. والواقع أنهم سيصيرون مخالب قطّ لك. فإذا مَوَّهت نواياك، فسيصبح من السهل عليك كثيراً أن تقودهم إلى تحركات تحقِّق ما تريد عمله بالضبط، ولكنك تفضِّل أن لا تعمله بنفسك، مثل كرة

داود بشبع

وكان عند تمام السنة، في وقت خروج الملوك إلى الميدان، أن داود أرسل يوآب وعبيده معه وجميع إسرائيل. فأخربوا بني عمون وحاصروا ربَّة. وأما داود فأقام في أورشليم. وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جدًا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي.. وكتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب:

البلياردِ التي تتقافز من على الجوانب بضع مرَّات قبل أن تتجه إلى الجيب الصحيح المستهدف.

«اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت»...

فجعل يوآب أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثي أيضًا. فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب... فلما سمعت امرأة أوريا الحثي أنه قد مات رجلها ندبت بعلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت امرأته وولدت له ابنًا.

العهد القديم

صموئيل الثاني، 11: 1-26

كان فنَّان التحايل الأميركي في مطلع القرن العشرين، يالو كِيْد وِيلْ، يعرف أنه مهما كانت البراعة التي يتجه بها إلى ضحيته المثالية من الأثرياء المغفلين، فإنه إذا اقترب بنفسه من ذلك الرجل مباشرة، وهو غريب عنه، فإن المغفل قد يرتاب في الأمر. وهكذا كان وِيلْ يعثر على شخص يعرفه المغفل من قبل، كي يستخدمه كمخلب قطّ، ــ شخص له مرتبة اجتماعية أقلّ بحيث لا يكون هو نفسه هدفاً محتملاً ــ ، ولذا فإنه يكون أقل مدعاة للشك. ثم يثير وِيلْ اهتمام هذا الرجل بمخطَّط واعد بثروة لا تصدَّق. وعندما يقتنع بأن المخطط حقيقي، فإن مخلب القطّ هذا كثيراً ما يقترح، بدون تحريض، إشراك رئيسه أو صديقه الثريّ. وبما أن هذا الرجل لديه مال أكثر للاستثمار، فإنه سيزيد حجم المبالغ المراهن بها في المخطَّط، مما يزيد حصص كل من يعنيهم الأمر. ثم يقوم مخلب القطّ بتوريط المغفل الثري الذي هو هدف وِيلْ من البداية، والذي لن يشك بوجود فخ، ما دام الذي أغواه هو مرؤوسه الموثوق به. وكثيراً ما تكون مثل هذه التدابير هي أفضل طريقة للاقتراب من شخص ذي سلطة ونفوذ: استخدم شريكاً أو مرؤوساً لاصطياد هدفك الأساسي الأول. فمخلب القطّ يعزِّز مصداقيتك ويحميك من المظهر غير الحميد الذي يجعلك تبدو مندفعاً وملحاحاً في تودُّدك.

إن أسهل الطرق وأكثرها فاعلية لاستخدام مخلب القطّ كثيراً ما تكون بزرع معلومات فيه ينقلها إلى هدفك الأساسي. ذلك أن المعلومات المزوَّرة أو المزروعة سلاح قوي، وخصوصاً إذا انتشرت على يد مغفل لا يرتاب فيه أحد. ولسوف تجد أن من السهل عليك جداً أن تلعب دور البراءة، وتغطي نفسك كمصدر لتلك المعلومات المضلِّلة.

كان المعالج الاستراتيجي الدكتور ملتن هـ. إيريكسون كثيراً ما يصادف بين مرضاه زوجين تريد الزوجة العلاج ولكن الزوج يرفضه رفضاً

قاطعاً. وبدلاً من أن يهدر الدكتور إيريكسون طاقةً في محاولة التعامل مع الزوج مباشرة، كان يقابل الزوجة على انفراد، وأثناء حديثها كان يقاطعها بتفسيراتٍ لسلوك الزوج يعرف أنه لو سمعها لثارت ثائرته. وكان من المؤكد أن الزوجة ستخبر زوجها بما قاله الطبيب. وبعد بضعة أسابيع تكون فورة غضب الزوج قد وصلت حداً يجعله يصرّ على حضور الجلسات مع زوجته كي يصحِّح للطبيب خطأه وسوءَ فهمه.

وأخيراً، فإنك قد تجد حالات تكسب منها سلطة عظيمة في آخر الأمر عن طريق تقديم نفسك كمخلب قط. فهذه خدعة رجل الحاشية الأمثل. ورمزها هو السير وولتر رالي، الذي فرش معطفه ذات مرة على الأرض الموحلة كي لا تلوِّث الملكة آليزابيث الأولى حذاءها. فعندما تجعل نفسك أداة لحماية سيِّدٍ أو ندٍّ لك من الأشياء البغيضة أو الخطرة تكسب احتراماً هائلاً تظهر فوائده عاجلاً أو آجلاً. وتذكَّر: إنك كلما جعلت مساعدتك خفية ذكية ولبقة بدلاً من أن تكون متبجحة وثقيلة الوطأة، فإن جزاءها سيكون مُرْضِياً وقوياً أكثر.

صورة: مخلب القطّ. للقطّ أظفار
طويلة لالتقاط الأشياء. تغطيها براثن
ناعمة مبطنة ومحشوة. أمسك قطّاً واستخدم
مخلبه لالتقاط الأشياء من النار، ولخدش عدوك به،
وللّعب بالجرذ قبل التهامه. وقد تؤذي القطّ أحياناً،
ولكنه في غالب الأحيان لا يشعر بشيء.

الشاهد: إفعل أي شيء سارٌّ بنفسك، وأي شيء كريه عن طريق أطراف ثالثة. فباعتماد المسار الأول تكسب الحظوة، وباتخاذ المسار الثاني تبعد عن نفسك النيّة السيِّئة. فالقضايا الهامة كثيراً ما تتطلَّب الجوائز والعقوبات. فليخرج منك كل شيء طيِّب فقط، وليخرج كل شيء شرير من الآخرين. *(بلتازر غراسيان، 1601-1658).*

الانقلاب

ينبغي استخدام مخلب القطّ وكبش الفداء بحذر ودقّة شديدين. فهما يشبهان ستارين يخفيان عن أعين الناس تورّطك في عمل قذر؛ فإذا ارتفع الستار في أي لحظة، وشوهدتَ أنتَ باعتبارك المتلاعبَ، والمسيطر على الدمى، فإن الحركة الحيوية سوف تنقلب، بحيث يرى الناس يدك في كلِّ مكان وسوف تُلامُ على كوارث ربما لم تكن لك يدٌ فيها. فما أن تتكشَّف الحقيقة حتى تأخذ الأحداث في التصاعد خارج نطاق سيطرتك مثل كرة الثلج.

في سنة 1572، تآمرت الملكة الفرنسية كاترين دي ميديتشي للتخلُّص من غاسبارد دي كوليني، وهو أميرال في الأسطول الفرنسي، وعضو قيادي في مجتمع الهوغونوت (البروتستانت الفرنسيين). وكان كوليني قريباً من ابن كاترين، شارلس التاسع، وقد خشيت من نفوذه المتنامي على الملك الشاب. وهكذا رتَّبت أمر اغتياله على يد أحد أفراد أسرة غايز، وهي واحدة من أقوى العشائر الملكية في فرنسا.

غير أن كاترين كانت لديها في السرّ خطة أخرى. كانت تريد من الهوغونوت أن يلوموا آل غايز على مصرع واحد من قادتهم، وأن ينتقموا له. وهكذا سوف تمسح الخصمين المهدِّدين لها أو تؤذيهما بضربة واحدة.. وهما كوليني وآل غايز. ومع ذلك أخفقت الخطتان كلتاهما. فقد أخطأ القاتل هدفه وأصاب كوليني بجراح فقط. وبما أن كوليني كان يعرف كاترين كعدوَّةٍ له، فقد شكَّ بقوة أنها هي التي رتَّبت هذا الهجوم عليه، وقد أخبر الملك بذلك. وفي آخر الأمر أدَّت محاولة الاغتيال الفاشلة والجدل الذي أثارته إلى تفجير سلسلة من الأحداث وردود الأفعال التي نجمت عنها حرب أهلية دامية بين الكاثوليك والبروتستانت، توَّجتها مذبحة عشية عيد سان بارثولوميو المرعبة، التي قتل فيها ألوف من البروتستانت.

إذا اضطررت لاستخدام مخلب قطّ أو كبش فداء في عمل ذي

عواقب عظمى، فكن شديد الحذر: فالشيء إذا زاد عن حدِّه قد ينقلب إلى ضدِّه. وكثيراً ما يكون من الأحكم استخدام مثل أولئك المغفلين في جهود أكثر براءة، حيث الأخطاء وإساءة الحسابات لا ينجم عنها أذى خطير.

وأخيراً، فإن هناك لحظات يكون من المفيد فيها أن لا تموِّه تورطك أو مسؤوليتك، بل أن تتحمَّل اللوم والمسؤولية عن بعض الأخطاء. ذلك أنه إذا كانت لديك سلطة، ومركزك فيها آمن، فإنه ينبغي عليك أحياناً أن تلعب دور التائب، فترسم على محياك نظرة أسىً وندم، وتطلب عفو أولئك الأضعف منك. إنها لعبة الملك الذي يستعرض تضحياته الخاصة لصالح شعبه. وبالمثل فإنك قد ترغب في بعض المناسبات أن تظهر وكأنك أداة العقاب لكي تزرع الخوف والرعشة في قلوب مرؤوسيك. فبدلاً من مخلب القطّ، تريهم يدك القوية الباطشة كإشارة تهديد. ولكن العب هذه الورقة بتحفظ واحتياط دون إسراف. لأنك إذا أفرطت في ممارستها، فإن الخوف سينقلب إلى غضب وكراهية. وقبل أن تدرك ذلك، فإن مثل هذه العواطف ستشعل ضدك شرارة معارضة قوية تطيح بك ذات يوم. تعوَّد على استخدام مخلب القطّ ـ فهذا أسلم.